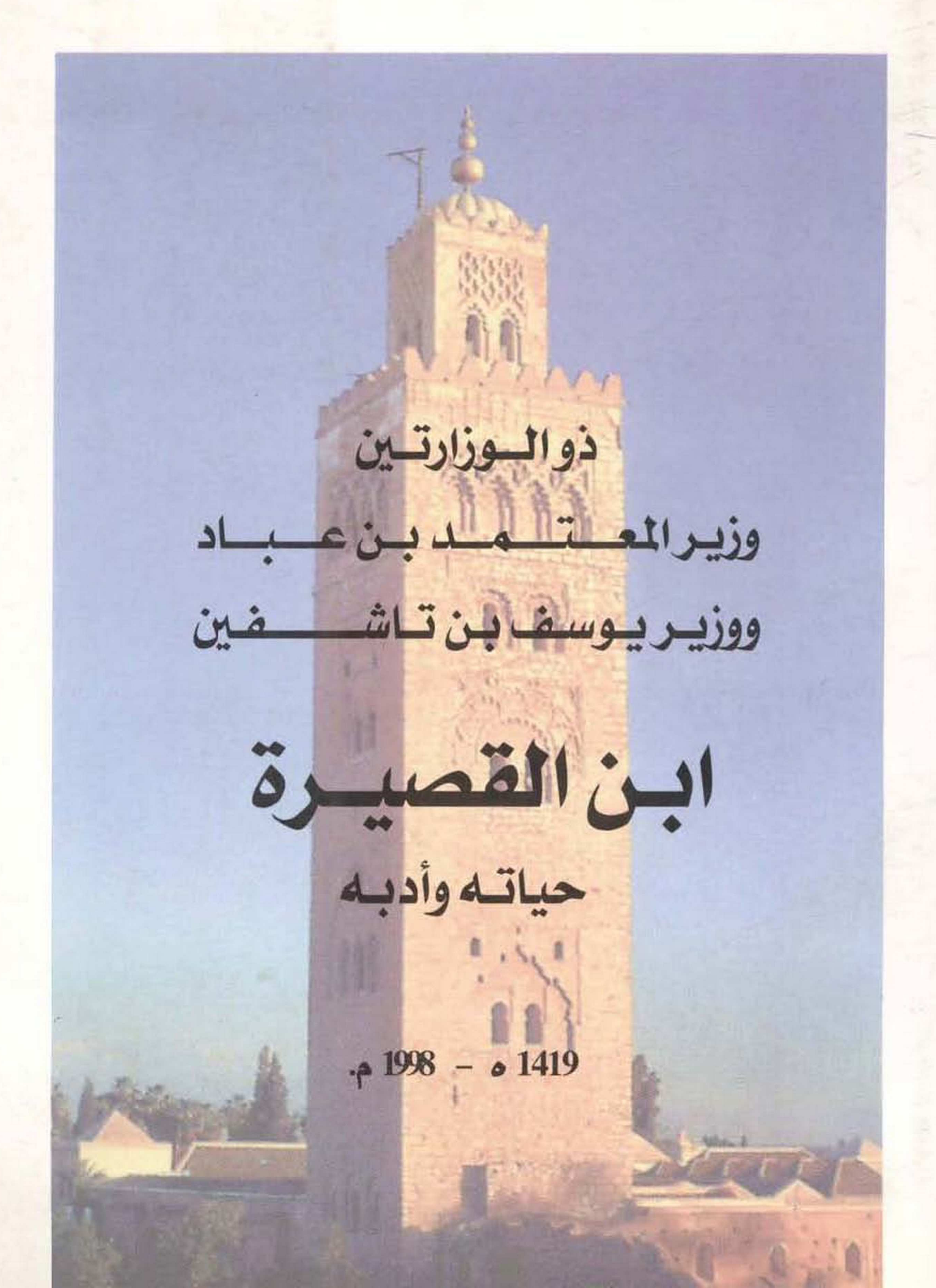
آسيـة الهاشمـي البلغيثـي



ذو الوزارتين
وزير المعتمد بن عباد
ووزير يوسف بن تاشفين

ابن القصيرة

حياته وأدبه

1419 هـ - 1998 م.

آسية الهاشمي البلغيتي

ذو الوزارتين

وزير المعتمد بن عباد ووزير يوسف بن تاشفين

ابن القصيرة
حياته وأدبه

1419هـ - 1998م

الإهداء

إلى الحبيبين الغائبين

إلى من ألهماني سر الحياة وكنه الوجود...

إلى من كانا ولا زالا وسيبقيان ما بقيت: مثلي الاعلى، ونموذجي المحتدى...

إلى ينبوع الفضيلة والتقى، وفيض الحب والعطاء... امي الحبيبة الفقيدة.

إلى رمز النبل والشهامة والكرم، ونبع الاريحية، ابي العزيز الفقيد.

إلى من تعاهدا على الحب والوفاء.

إلى ان ماتا معا، ودفنا معا...

إليهما معا اهدي صفو قريحتي، وخلجات النفس وكوامن اغوار مشاعرها وتفاعلها ومعاناتها واستجاباتها تجاه جميع مجالات الحياة وعلى جميع الجبهات والاصعدة مستمطرة عليهما شآبيب الرحمة والرضوان، داعية الباري جلت قدرته ان يسكنهما فسيح جناته في مقام صدق مع « النبيئين والصديقين، والشهداء والصالحين، وحسن اولئك رفيقا » آمـــــين.

آسية الهاشمي البلغيثي



بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

مقــــدمــــة

منذ نشأتي والاحلام تداعب مخيلتي بأن أكون أديبة ومؤلفة. ولم يكن لي أي إلمام بأسرار هذا الفن غير أني كنت أجد نفسي كلما طرح علي سؤال حول ما أفضل أن أكونه الا واجيب على الفور: أديبة.

ومرت الأيام، وتقاذفتني ظروف الحياة -شأن جميع الناس-، غير أني ظللت متمسكة بطلب العلم، مؤمنة أنه السبيل الوحيد لتحقيق أمنيتي، ومنطلقة من مشاعري الذاتية نحو ممارسة أمتع هواية وأحبها إلى نفسي: التعلم والتثقيف والبحث والتنقيب...

وبعد مجهودات مضنية جاء اليوم الذي طالما تاقت نفسي إليه، واصبح لي بل علي ان اعد موضوع بحث ادبي كنواة اولى لاعمالي الادبية المقبلة -بحول الله- وكانطلاقة اولية نحو الميدان الذي طالما منيت نفسي بولوجه.

لكنني -والحق يقال- وقفت حائرة أمام مجرد اختيار موضوع لبحثي. وأظنها مرحلة طبيعية يمر منها كل مبتدئ في هذا الميدان الذي يتطلب نفسا طويلا، وإعمالا للفكر لمدة طويلة يعايش فيها الاثار الادبية ويستقريها متتبعا ما يتصل بموضوعه منها، مستوحيا إياها، مسجلا انطباعاته وأحكامه عليها...

غير أن حيرتي لم تدم إذ ما ان اطلقت العنان لعواطفي ومشاعري لتهديني الى احب المجالات الادبية الى نفسي، حتى قفز الى ذهني مجال قريب الى قلبي، غامض فيّ ذهني، الا وهو الادب الاندلسي.

ذلك انه بقدر ما كنت أتجاوب مع أدب هذا العصر، وأجد لذة عظيمة في دراسة آثاره الشعرية والنثرية -ممزوجة بمرارة الحسرة على تلك الديار الشهيدة، وبالفخر بما خلفه سلفنا المجيد فيها من آثار أدبية وعمرانية-. قلت بقدر هذا التجاوب بقدر ما كنت اتساءل وترتفع أمامي علامات استفهام كبيرة عن حقيقة الاحداث التي شهدتها تلك البقاع العزيزة، وحقيقة المكانة الحضارية التي تبوأتها في تلك العصور الغابرة، وحقيقة الدور الذي قامت به كل دولة في بناء صرح تلك الحضارة العربية التي لازالت آثارها الخالدة شاهدة على عظمتها تنافس الدهر البقاء.

ذلك ان ما كتب في هذا المجال -رغم كثرته- لا يخضع للنزاهة في شيء، فهو اما من طرف مستشرقين مغرضين يدسون السم في الدسم، ويسيرون في ركب الحملات الصليبية، أو من طرف شرقيين متأثرين بالعصبية الممقوتة التي كانت على اشدها -اذ ذاك- بين الشرق والغرب الاسلاميين، أو بعبارة اصح بين العرب والبربر، أو بالنزعات المحلية والانظمة السياسية -وخاصة اذا تعرضوا لعصر الدولة المغربية المرابطية بتلك الربوع الشهيدة- أو من طرف أندلسيين عاشوا في الفترة التي كان فيها الوجود العربي بالاندلس يلفظ انفاسه الاخيرة على اعتاب غرناطة، فكان كل منهم موتورا من هذا الامير أو ذاك، او مضطهدا من ذلك النظام او تلك الدولة في ماضيه، فعبر عن سخطه الخاص -الذي امتزج بتمرده وسخطه العام على أوضاعه وأوضاع بلده وقلقه على مصيره ومصير أمته- بجلاء ووضوح، بدليل تناقض كتبهم في تناول الموضوع الواحد وسرد الحادثة نفسها، رغم معاصرة بعضهم لبعض كالتناقض بين الذخيرة وقلائد العقيان، وبين غيرها من المؤلفات التي عرفتها تلك الفترة الحاسمة من تاريخ أمتنا العربية الاسلامية.

وكان ذلك يحز في نفسي واتوق لمعرفة الحقيقة، فاتيه بين هذا المرجع وذاك، وسرعان ما تنطمس أمامي معالمها، أو لعلها كانت تطفو حينا وترسب أحيانا...

وإذا كانت الشعوبية والعصبية والاغراض الشخصية والحروب والاهوال قد لعبت هذا الدور الخطير في طمس معالم الحقيقة التاريخية والادبية لتلك البقاع الغالية، فقد وجدت -في اختيار موضوع الادب الاندلسي مجالا لبحثي-، فرصة سانحة أقف بواسطتها على الحقيقة التي طالما نشدتها، ثم أعمل على صقلها وبلورتها واخراجها للوجود في قالب جديد متوخية النزاهة العلمية، هادفة لخدمة العلم بمجهودي المتواضع البسيط، بعد التحليل والتعليل، وايراد الاسباب والمسببات، واستلهام المعطيات...

غير أنني ما ان قر قراري على اتخاذ الادب الاندلسي ميدانا لبحثي ومرتعا لقلمي حتى بليت بالحيرة ثانية، فما هو الجانب -بالضبط- من هذا الادب الذي سأضعه على محك بحثي، واستقصيه دراسة وتحليلا؟ فموضوعي البسيط لن يتسع، ولن يستوعب شتات ذلك العصر الزاخر الذي يتطلب مجلدات ضخمة، ما اعجزني اليوم عنها وابعدني عن استقصائها.

وانقذني من حيرتي هذه المرة اتصالي بأستاذنا الجليل الدكتور عبد السلام الهراس -الذي اعددت بحثي (1) تحت اشرافه الرشيد، وتوجيهاته السامية- وذلك حينما أعطاني

---

(1) بحث لنيل شهادة الإجازة في الأدب العربي سنة 1975 م.

مجموعة من الاسماء لشخصيات أدبية عاصرت مختلف عصور الوجود العربي الاسلامي في ربوع الاندلس، تاركا لي حرية اختيار احداها.

وبعد دراستي لها جميعها على -سبيل الانتقاء-، وقع اختياري على ذى الوزارتين ابي بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة الكلاعي الولبي.

ولعل قائلا يقول: لماذا ابن القصيرة بالذات؟ وفي الجواب على هذا السؤال أرى من الاليق ان استعرض الاسباب التي أغرتني بالكتابة حول هذه الشخصية بالذات وهي عديدة وأهمها:

1- ان ابن القصيرة شخصية ذات وزن وبال في تاريخ الاندلس السياسي والادبي...

2- انه رغم مكانته السياسية والادبية لم يتناوله -لحد الساعة- احد الباحثين بالدراسة الخاصة المفصلة.

وإذا كان يحلو لغيري أن يختار الشخصيات البارزة المطروقة فأنا ممن يفضل الكتابة في موضوع جديد، لانفض عنه غبار العصور التاريخية التي تعاقبت عليه وهو في زوايا النسيان. وظل الاهمال.

3- انه مخضرم -ان صح التعبير- فهو قد عاصر دولتين من ابرز الدول التي حكمت في الاندلس وعاش في اكنافهما مدة معينة من حياته الصاخبة بل انه تولى الوزارة لكل منهما: الدولة العبادية باشبيلية، والدولة المرابطية في الاندلس كلها. كما كان شاهد عيان لموقعة الزلاقة الفاصلة التي تعتبر غرة في جبين تاريخنا المجيد.

4- وهو من جهة أخرى، خاض غمار تلك الفترة الحاسمة في تاريخ الاندلس السياسي والادبي التي تضاربت فيها أقوال الباحثين، فتفرقوا في شأنها طرائق قددا فضرب كل منهم على وتره وغنى كل منهم بلحنه، فابدوا واعادوا. وهي بالضبط تلك الفترة التي كانت غامضة في ذهني، وأثارت فضولي، فاردت تسليط اضواء الحقيقة عليها.

لهذه الاسباب الرئيسية -ولاسباب أخرى ثانوية فرعية-، ارتايت دراسة علم من اعلام الادب الاندلسي في فترة تعتبر من أدق الفترات لاستراتيجيتها التاريخية والادبية.

هذا وقبل الخوض في البحث أو الحديث عن هذا الاديب رأيت ان اتي بعجالة تاريخية وجغرافية عن الاندلس، محاولة فيها التعريف بالبيئة المحلية التي انجبته، واحتضنته، ثم ألهمته، اذ لا يجهل احد اليوم مدى تأثير البيئة الطبيعية والاجتماعية في الاديب.

وبعد ذلك اتناول بشيء من التفصيل العصرين اللذين عاصرهما ابن القصيرة، واسهم في سياستهما وأدبهما بنصيب وافر: عصر ملوك الطوائف وخاصة الدولة العبادية

وعصر المرابطين، محاولة الاختصار ما أمكن فيما يتعلق بالجانب السياسي، جانحة الى التفصيل ما استطعت فيما يرجع للجانب الادبي. اذ من الصعب الفصل بين الجانبين. فكل منهما يؤثر في الاخر بل ان التاريخ الادبي دائما يدور في فلك التاريخ السياسي فيزدهر بازدهاره وينحط بانحطاطه، اللهم في أحوال شاذة "والشاذ لا حكم له" وذلك ما طبع الموضوع بطابع تاريخي، خاصة وان المراجع التي اعتمدتها في بحثي جلها تاريخي "والرجوع الى الأصل أصل".

وفي حديثي عن ابن القصيرة، ساركز على ما يتعلق بالأديب نفسه، مبتدئة بحياته وأدبه من شعر ونثر، مقسمة هذا الأخير إلى مرحلتين: ما كتبه عن المعتمد بن عباد، وما كتبه عن يوسف بن تاشفين، للفرق الواضح والبون الشاسع بينهما، مما يعتبر تطورا كبيرا في أدب ابن القصيرة، اقتضاه ذلك التطور الكبير الذي خضعت له البلاد في جميع ميادين الحياة: السياسية والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والحضارية...

وسأركز دراستي بالخصوص على أهمها وأكثرها ارتباطا بالموضوع، كوصفه لمعركة الزلاقة في رسالة ديوانية سلطانية عن المعتمد بن عباد الى ولده وولي عهده ونائبه على اشبيلية أثناء غيبته بالموقعة.

وهكذا سأبتدئ بالديوانية عن المعتمد بن عباد ثم بها عن يوسف بن تاشفين، ثم بالعهود والوثائق، لأختم دراسة نثره برسائله الاخوانية، محاولة في كل ذلك تلخيص الاحداث، والقاء نظرة على أدب ابن القصيرة، ومعرفة مدى تأثره بالاتجاهات المختلفة المعروفة في الشرق والغرب، ومدى انعكاسها على أدبه، والى أي حد تأثر بغيره، ومدى تقليده وتجديده، مبرزة سماته المميزة له عن غيره من معاصريه وسابقيه ولاحقيه، لأصل إلى حكم أخير عليه، محاولة إبداء ارهاصات حول ما استنتجته من مطالعاتي وتنقيباتي، تكون خلاصة لبحثي هذا الذي أضعه بكل تواضع بين يدي أستاذي الجليل، راجية أن يكون عند حسن ظنه، وأن أكون قد وفقت في السير على نهجه القويم، والاهتداء بتوجيهاته وإرشاداته الغالية والسعي على دربه العتيد-في المستقبل بحول الله- إنه نعم المولى ونعم النصير.

آسية الهاشمي البلغيثي

تمهيد

الاندلس

تقع الاندلس في الزاوية الجنوبية الغربية من أوربا، وهي عبارة عن شبه جزيرة كبيرة تفصلها عن فرنسا شمالا سلسلة جبال البرانس، وعن افريقيا جنوبا مضيق جبل طارق، ويحدها غربا المحيط الأطلسي -الذي سماه العرب بحر الظلمات- أما شرقا فيحدها بحر الروم[1].

وأطلق العرب اسم الاندلس على جميع البلاد الاسبانية التي فتحوها، ولعل أصل التسمية ان الڤندال عند دخولهم اسبانيا - في القرن الخامس الميلادي- سمو المرفأ الذي ابحروا منه باسمهم (ڤندلس)، ولما جاء العرب حرفوه الى اندلس واطلقوه على البلاد كلها، ثم اقصروه على ما فتحوه منها[2]، وحتى يومنا هذا يسمى الاقليم الجنوبي من اسبانيا اندلسيا .

واجمل ما فيها انهارها المنسابة المنحدرة من سلاسل جبالها المشهورة الى المحيط الأطلسي، ونحو البحر الأ بيض المتوسط.

ولحسن موقعها الجغرافي واستراتيجيتها الطبيعية و جمالها الساحر وخصوبتها، كانت محط أطماع الفاتحين والغزاة عبر التاريخ. فقد غزتها قبل العرب أمم كثيرة كقبائل البسك والسلت، والجلالقة من بلاد الغال، ثم البربر من إفريقيا الشمالية، ثم الفنيقيين، -وذلك قبل الميلاد بقرون-، ولما كان القرن الثالث الميلادي[3] غزاها الرومان، وأصبحت ولاية رومانية فسموها إسبانيا، وتأثرت بروما لغويا ودينيا، ثم غزاها الڤندال من الشمال، في القرن الخامس الميلادي [4] وأسسوا مملكتهم على الوادي الكبير، ثم غزاها القوط، فخيم في عهدهم على البلاد ظلام حالك، وخبا نور الثقافة الرومانية.

أما اليوم فأصبحت الاندلس كلمة تخفق القلوب، وتخشع النفوس وتطأطأ الرؤوس لذكرها في البلاد الإسلامية شرقا وغربا، لأنها مبعث لشعور الافتخار والعظمة بالماضي المجيد، ومثار لشعور المرارة والحسرة على ذلك الفردوس المفقود الذي تقلص عنه ظل الاسلام بعد أن ظل فيه هدى للناس قرونا وأجيالا، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

(1) والبحر الابيض المتوسط.

(2) في الأدب الاندلسي ص 9.

(3) الفن ومذاهبه في الشعر ص 410.

(4) الفن ومذاهبه في النثر ص 410.

الحياة السياسية في عصر ملوك الطوائف والمرابطين:

مما لا جدال فيه أن الأديب وليد بيئته الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فهذه جميعا تؤثر فيه وفي انتاجه الى أبعد حد، وهذا ما نادى به الناقد العربي الكبير القاضي أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجاني الذي كان أول من قعد النقد العربي، ووضع له أسسا وقوانين منذ القرن الرابع الهجري، وأثار في دراساته قضية تأثير البيئة في الأديب وأدبه بوضوح. وهي من القضايا النقدية الرئيسية التي تتبناها الدراسات المعاصرة في جميع الاداب في الشرق والغرب والتي جاءت مصدقة لما بين يديها من آراء القاضي الجرجاني الصائبة.

وانطلاقا من إيماننا العميق بكل هذا، علينا قبل أن نتطرق للحديث عن أبى بكر بن القصيرة ان نرجع خطوات إلى الوراء، الى القرن الخامس الهجري، وإلى اشبيلية، بل الى ولبة بالضبط التي أنجبت هذا الاديب الفذ الذي ترعرع بين أحضان طبيعتها الزاهية التي "جمعت بين البر والبحر، والزرع والضرع ، والنخل والنتاج، وأجناس التمار، وكثرة الزيتون والأعناب، وارضها يجود فيها العصقر، ويوجد في بحرها القندس، وفيها عين تشبعت بالشب، وعين تتدفق بالزاج" [1].

هذه الطبيعة الساحرة المتنوعة الغنية كان لها فعل السحر في الهامة، فتفتحت مواهبه، وتفتق ذهنه، وتنبهت عواطفه ومشاعره، فجعلت منه أديبا موهوبا مطبوعا.

وبعد أن شب عن الطوق، وبرزت استعداداته الادبية، اسلمته ولبة إلى اشبيلية التي تلقفته باعتزاز وترحيب، فارضعته البانها، وصقلت مواهبه، وشحذت عزيمته، كما سحرته طبيعتها السافرة الباسمة، واستهواه نهرها الكبير الجبار، وبهرته آثارها الخالدة، وحدائقها الرائعة فإذا هو شاعر فحل لا يجاري، وكاتب مفلق مطبوع...

وكانت اشبيلية تقع على الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير، وكانت تسمى اسباليس Hespalys فتحت سنة 712م [2]، وظل بها المسلمون الى سنة 1248م [3]، وتسمى بحق (رومة الصغيرة) شيدت في العصر الوسيط، واسمها من أصل ايبوى فنيقي، وفضائلها أجملها الشقندى في قوله: "فمن محاسنها: اعتدال هوائها، وحسن المباني، وتزيين الداخل والخارج، وتمكن التمصر، تقول العامة: "لو طلب لبن الطير فيها وجد" ويقول أيضا: "وجعلها الله أم

---

(1) المغرب في حلى المغرب ص 339

(2) في بعض المصادر الاسبانية سنة 711.

(2) المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثالث ص 245

قرى الاندلس، ومركز فخرها وعلاها، فهي أكبر مدنها وأعظم امصارها[1] "ويلخص لنا كل هذا احد الوشاحين في قوله:

اشبيلية عروس وبعلها عباد تاجها الشرق وسلكها الواد

فهي تمثل بصدق تقدم العمران الاسلامي في الاندلس الذي تتجلى عظمته وعظمتها في مئذنة الخيرالدا. وكما انجبت ابن القيصرة في القرن الخامس الهجري، انجبت كثيرا من العظماء عبر مختلف العصور، نذكر على سبيل المثال: دون خوان ابن الملوك الكاتوليك، ورسام الحقيقة دييجوتيلاتكيت، وفي كاتدرائيتها توجد بقايا كريستوف كولومبوس، وبها توفى فاتح المكسيك هرنان كورستين، وفيها يرقد جثمانه، ومن مفاخرها أيضا أن قصة دون كيخوته دي لامانتا[2] ولدت في أحد سجونها. وقد خير أحد من راى مصر والشام بينها وبينهما فقال: مفضلا إياها: "وشرقها غابة بلا أسد، ونهرها نيل بلا تمساح، وقد سمعت عن جبال الرحمة بخارجها... وما من جميع ما ذكرت في هذه البلدة الشريفة الا وقصدي به العبارة عن فضائل جميع الاندلس"[3]

بعد هذه التوطئة عن المدينة التي تلقفت ابن القصيرة، والبيئة الطبيعية التي الهبت مشاعره، فطبعته بطابعها، وطبعت ادبه بخصائصها، لابد لنا ان نتعرف على العوامل السياسية التي كونت شخصيته، فجعلت منه ذلك الدبلوماسي الكبير، وعلى الاجواء والملابسات الادبية التي تمخضت عنه وخلقت منه ذلك العالم الاديب.

لقد انتهت الدولة الاموية بالاندلس -كما ينتهي كل شيء في هذا العالم-، وغاصت في زوايا التاريخ، لنقائصها وغطرسه حكامها، واطماع الولاة، وانحلال اخلاق الشعب. فبعد ان زالت يد المنصور الحديدية، وسقطت حكومته الاستبدادية، قامت في الاندلس حروب أهلية قلصت ظل الخلافة فأصبحت تعيش تحت سيطرة الاجناد.

وقد خرجت البلاد من هذه الفتن والحروب مقسمة الى ما يزيد على عشرين مملكة، لكن سرعان ما ابتلع القوي منها الضعيف -الذي لم يقوعوده على تحمل الاعاصير- فسقط وسط العواصف. فبعد معارك ضاربة بين مختلف النزعات والاهواء تكونت في الاندلس اربع دول رئيسية غلبت باقي الدول أو حالفتها.

---

(1) نفح الطيب المجلد الثالث ص 198 .

(2) للكاتب الاسباني الكبير سربانطيس

(3) نفع الطيب جـ 4 ص 198.

ففي مالقة: حزب افريقي مغربي ادريسي يتمثل في بني حمود الذين حالفهم أمير غرناطة وقرمونه وحكموا في شمال المغرب: سبتة وامليلية وطنجة.

وفي اشبيلية: بنو عباد الذين تغلبوا بالحرب والخديعة على كل الامراء جنوب غرب اسبانيا، وحالفهم أمير قرطبة وبطليوس.

وفي طليطلة: بنو ذي النون الاقوياء الذين حالوا دون استيلاء العباديين على سائر الاندلس، وحكموا اواسط اسبانيا.

أما في بليسنية ومرسية، فنجد بني عامر، وكانوا أضعف قوة وأقل استقلالا.

وبين هؤلاء تصارعت أهواء رؤساء المسلمين وتضاربت مصالحهم، فتقارعوا تارة بالسيف والسنان، وأخرى بالقلم وسحر البيان، فكم تنافسوا سياسيا، فتسابقوا في بناء الحصون والقلاع، وكان منهم من خطب لبنى امية بعد انقراض دولتهم، ومن دعا لبني العباس رغم بعدهم، ومنهم من داخله الغرور وتطاول فتلقب بالقاب الخلفاء: كالمعتضد والمعتمد مما دعا بعض الشعراء للسخرية بهم في قوله:

مما يزهدني في ارض اندلس	اسماء معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكة في غير موضعها	كالهر يحكي انتفاخا صورة الاسد

ودام حكم ملوك الطوائف نحوا من سبعين سنة -أثناء المائة الخامسة للهجرة-، فأصبحت البلاد -كما قال نيكلوس- شبيهة بايطاليا في القرن الخامس عشر، وملوكها كأولئك القادة الذين كان يطلق عليهم في إيطاليا اسم [1] Condotture.

وهنا سأترك ملوك الطوائف لحالهم لاحصر نطاق دراستي في إطار بني عباد، أعظم دول الطوائف، وأكثرها علاقة بأديبنا ابن القصيرة الذي عاش في بلاطها وتقلب في نعيمها، وقام على شؤونها، وشارك في أدبها. قال أبو نصر: "هذه بقية منتهاها في لخم ومرقاها الى مفخر ضخم وجدهم المنذر بن ماء السماء [2] " وقال الفتح بن خاقان: " وجدهم المنذر بن ماء السماء ومطلعهم في جو تلك السماء والقاضي أبو القاسم جدهم هو الذي اقتضى لهم الملك، وجاء بعده ابنه المعتضد ثم المعتمد". [3] واشتهر منهم اسماعيل بن عباد، فعينه المنصور قاضيا باشبيلية، وبعد انقراض الخلافة، ظل قاضيا يدعي الامانة

---

(1) الادب الاندلسي ج 1 ص 55

(2) البيان المغرب ج 3 ص 284

(3) نفح الطيب المجلد الخامس ص 375

للخلافة، وقام بالحكم احسن قيام الى ان ضعف بصره، فولى ابنه ابا القاسم القضاء، واقتصر هو على مشيخة البلاد الى ان توفى سنة 414هـ، فخلفه ابنه ابو القاسم محمد، فضبط الأمور، وساس البلاد، وأطاعه أهلها، فخرجوا عن طاعة القاسم بن حمود وأغلقوا في وجهه أبواب اشبيلية.

وبذلك انفرد ابو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد بالبلاد، وساسها بحزم، حتى تفوق على سائر ملوك الطوائف، ومما يشهد بدهائه السياسي في محاربته لبني حمود، احياؤه لهشام بن الحكم والدعوة له حتى سايره أهل قرطبة. قال ابن القطان: "وقد خاطب هشام المؤيد المزعوم الناس من وراء حجاب قائلا: انه سير حجابته الى ابن عياد، وشهد عليه بذلك الشهود والخاصة وأرباب الدولة، ومن ابى منهم ان يشهد حاق به البلاء". ولما مات سنة 431 هـ، خلفه ابنه عباد فتكنى بابي عمرو، وتلقب بالمعتضد بالله، واستولى على غرب الاندلس، وعين به عماله، وتوفى سنة 461 هـ من علة الذبحة. قال فيه ابن حيان ما معناه: "زعيم ثوار الاندلس في وقته... ذو الانباء البديعة، والحوادث الشنيعة [1] .... ومما يشهد بصرامته وبطشه تلك الرؤوس التي اورثها ابنه المعتمد في جوالقها قال ابن بسام: "لما افتتح المرابطون اشبيلية وخلع المعتمد، حدثت انه وجدت له جوالق مطبوع عليها، فظن ذلك مالا وذخيرة، فإذا هو مملوء رؤوسا، فاعظم ذلك وهاله أمره، ودفع كل رأس منها الى من كان بقي من عقبهم بالحضرة" [2]

فقد حارب المعتضد جل ملوك الطوائف ومحا اسمهم من الوجود، وضم مملكتهم اليه متخذا كل وسيلة لذلك من غدر وخيانة، بل لم يتورع حتى عن قتل ولده بيده حين عصاه في غزو قرطبة 449 هـ، وفي الحين استدعى ولده محمد من ولاية شلب، وجعله حاجبه، فلم يلبث ان خلفه في الحكم بعد موته سنة 461هـ. قال ابن خلكان: "المعتمد على الله ابو القاسم محمد بن المعتضد بالله من ولد النعمان بن المنذر آخر ملوك الحيرة" [3]. وقد سار سيرة أبيه مع باقي ملوك الطوائف فغدر بعبد الملك بن جهور، واستولى على قرطبة فصار "صاحب قرطبة واشبيلية وماوالاهما من جزيرة الاندلس" [4] وفيه قال أحد الشعراء:

من بني المنذرين وهو انتساب	زاد في فخره بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعالي	والمعالي قليلة الاولاد

(1) البيان المغرب جـ 3 ص 207

(2) البيان المغرب ج 3 ص 206

(3) وفيات الاعيان ج 5 ص 686

(4) وفيات الاعيان ج 5 ص 686

وفي عهده كان الفونسو بن فرذلند، -ملك النصارى بالاندلس- قد عظم أمره، حتى صار ملوك الاندلس يرهبونه ويؤدون له الجزية، فلما أخذ طليطلة سنة 478 هـ، داخله الطمع وأعماه الغرور، فطغى وتجبر. وكان المعتمد أكبر ملوك الطوائف، وكان يؤدي الضريبة لالفونسو فامتنع عن أخذها منه بعد استيلائه على طليطلة، قال صاحب الروض المعطار: "لما اشتغل المعتمد بغزو ابن صمادح صاحب المرية، تأخر عن دفع الضريبة لاذفونش، فاستشاط الطاغية غضبا، وطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة، وأمعن في التجني، فطلب ان تلد زوجته القميظية في جامع قرطبة، على ان تنزل في الزهراء [1] فضرب المعتمد الرسول وقتل رفاقه، ولما علم الفونسو بذلك -وهو متوجه لحصار قرطبة- عاد الى طليطلة لاخذ آلات الحصار.

وأخذ الفقهاء ينظرون بقلق الى الحالة التي تردت اليها البلاد، وافاق ملوك الطوائف من غفلتهم فادركوا ان عليهم اما ان يسلموا البلاد او يستعينوا بإخوانهم الاقوياء، وايد الشعب الحل الثاني، ونادى به الفقهاء الذين عقدوا مؤتمرا لهم ودرسوا الوضع الخطير في البلاد فاختاروا يوسف بن تاشفين واجتمع رايهم على مكاتبته، فنزل الامراء عن رأيهم مرغمين فقد اجتمع القاضي عبد الله بن محمد بن ادهم بالمعتمد، واخبره بما انتهى اليه رايهم فقال له: تمضي اليه بنفسك" فامتنع، ولما الزمه قال: استخير الله سبحانه، وكتب في الحال الى يوسف بن تاشفين -ملك الملثمين بمراكش- يصف له حالة البلاد الخطرة. وما ان وصله حتى قصد سبتة حيث تلقاه القاضي ووفده، وكان ضمنه ابن زيدون.

وبعد مفاوضات -اشترط يوسف بن تاشفين اخلاء الجزيرة الخضراء له ليتخذها معسكرا لجيشه وانتظارهم حتى يفتح سبتة وطنجة. وظل بسبتة حتى عبرت جيوشه للجزيرة، فعبر في اثرها سنة 479 هـ، بعد ان دعا ربه. وما ان وصل حتى صلى وتسلم قلعة الجزيرة، فاستقبله الفرسان والقضاة، واجتمع بالمعتمد على رأس جيش أهل الاندلس، وانظم اليهما عدد من المسلمين من كل البلاد طلبا للجهاد، وخرج اليهم الفونسو من طليطلة في أربعين ألف فارس، -غير ما انضم اليه من دعاة الصليبيين-، بعد أن كتب إلى يوسف ابن تاشفين: "أما بعد، فانت اليوم أمير المسلمين ببلاد المغرب وسلطانهم، وأهل الاندلس ضعفوا عن مقاومتي ومقابلتي... فاما ان تجوز الي، واما أن ترسل المراكب أجوز اليك" [2].

---

(1) نفح الطيب المجلد السادس ص 90

(2) المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثالث ص 233.

فلم يأبه به يوسف، ورفض أن يجيبه بكتاب مطول -كتبه كاتب الجبهة المتحدة ابن القصيرة-، واكتفى بأن كتب جوابه على ظهر كتاب الفونسو هذا نصه: "من أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الى ادفونس، اما بعد، فإن الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه باذنك، والسلام على من اتبع الهدى" [1] فارتاع الفونسو وقال: "هذا رجل عازم" وسار الجيشان حتى احواز بطليوس في سهل الزلاقة -حيث يفصل بينهما نهر صغير (حجير)- فارسل يوسف الى الفونسو يخيره بين الاسلام أو الجزية او الحرب، ويخبره انه عبر اليه بنفسه ليوفر عليه عناء ذلك، فغضب الفونسو والقى بكتابه الى الارض، وأرسل يحدد يوم القتال بالاثنين، واضمر الغدر والهجوم يوم الجمعة، ولم تنطل حيلته على المسلمين، فارسل المعتمد عيونه لمراقبة معسكره، كما بات يوسف على اتم استعداد فنقل معسكره أثناء الليل، وما أن جاءه سفير المعتمد ابن القصيرة -معلنا تحرك النصارى، وطالبا البدار-، حتى وجده على اهبه كاملة.

ودهش النصارى حين التقوا بفرسان المرابطين بقيادة ابن عائشة في طليعة جيش المعتمد الذين حطموا الخط الامامي لجيش الاعداء، وردوهم لخط دفاعهم الثاني. لكن سرعان ما انكشف جيش الاندلس وولى الادبار ولاذ بالفرار والاعتصام بأسوار بطليوس [2] ولم يثبت مع المعتمد غير فرسان ابن عائشة، فوقع الفونسو في الخطأ الذي أراده له يوسف، وظن أنه انتصر ولم ير جيش يوسف -المختبئ وراء الاكمة- الذي وثب للميدان في الوقت المناسب، فاقتحم محلات العدو.

وهكذا تعاقبت الكرات بين المحلات، وتم النصر للمسلمين، واتم الله نعمته عليهم، وضمت رؤوس 9000 من قتلاهم الى بعضها واتخذت صوامع اذن عليها المؤذن.

وكان انتصار يوسف انتصارا عزيزا مؤزرا مسوما، وغنم مالا يحصى من دواب وسلاح واسرى، بينما هرب الفونسو مجروحا في شرذمة من عساكره، يجر أذيال هزيمته النكراء، وذلك يوم الجمعة منتصف رجب سنة 479 هـ موافق 26 أكتوبر 1086 م. [3]

وقد ارسلت كتب النصر من إنشاء ابن القصيرة مع رؤوس القتلى لتقرأ على منابر المساجد في المغرب والاندلس، كما تبارى شعراء العصر في مدح يوسف والاعتراف بفضله على الاسلام والمسلمين، وفي الاستهزاء بالفونسو كابن عبد الجليل بن وهبون في قوله:

---

(1) المغرب في العصر الوسيط القسم الثالث ص 234

(2) المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثالث ص 243

(3) وفيات الاعيان ج 5 ص 29.

فـأين العـجب يا اذفـونش هلا تجنبت المشـيـخـة يا غـلام
سـتـسـألك النسـاء ولا رجـال فـخـبـر مـا وراءك يا عـصـام

ومنها في مدح يوسف:

فـثـار الى الطعـان حليف صـدق تثـور به الحـفـيظة والذمـام
وصـار فـوق ظهـر الارض ارضـا كـان وهادها فـيـه ركـام
فـان ينجـو اللعين فـلا كـحـر ولكن مـثل مـا ينجـو اللئـام

وبعد هذا الفتح المبين، رجع الامير يوسف الى المغرب، متعففا عن الغنائم كلها، تاركا إياها لملوك الطوائف. وما ان سوى مشاكله الداخلية في المغرب، حتى عاد الى الاندلس لمتابعة الجهاد مع ملوك الطوائف الذين استاسد عليهم الفونسو بعد ان لم شعثه وجمع انصاره من جديد.

لكنه -بعد حصار حصن بليط-، تبين له بوضوح سوء نية ملوك الطوائف، ومدى جشاعة المعتمد واستغلاله اياه في مصالحه الخاصة، وداخله الناس في شأنهم، ودست اليه السعايات بهم، وشاهد انغماسهم في الملذات، واهمالهم لمصالح الرعية، وتحاسدهم وتباغضهم، فغير سياسته ومخططه، وأنهى الجبهة المتحدة، وعزم على خلعهم وضم البلاد الى مملكته ليتسنى له محاربة النصارى دون خذلانهم، واستفتى العلماء والفقهاء فافتوا بأحقية عمله لإنقاذ الاسلام والمسلمين، وأصدر هذه الفتوى ابو جعفر-قاضي الجماعة بغرناطة- وصادق عليها علماء وفقهاء المغرب، وتوجها تاييد كبير علماء الشرق وحجة الاسلام، الامام الغزالي، وابو بكر الطرطوشي.

واسند يوسف مهمة الاطاحة بعروشهم الواهية لقائده وابن عمه سير بن أبي بكر الذي طوح بهم واحدا تلو الآخر مبتدئا بابن بلكين في غرناطة، ومنتهيا بالمعتمد في اشبيلية.

وهكذا قبض على المعتمد فقيد، "ثم جمع هو وأهله، وحملتهم الجواري المنشات، وضمتهم كأنهم أموات بعد ان ضاق عنهم القصر، وراق منهم العصر، والناس قد حشروا بضفتي الوادي" [1] ويقول الفتح بن خاقان: "وكر عليه الدهر وهو مستمسك بعرف لذاته، منغمس فيها بذاته، ملقى بين جواريه مبعثر بودائع ملكه وعواريه التي استرجعت منه في يومه، ونبهه فواتها من نومه". [2]

(1) وفيات الاعيان ج 5 ص 30

(2) قلائد العقيان ص 23.

ولما حمل وأهله الى يوسف بمراكش، أمر به الى أغمات، فلم يخرج منها حتى مات في ذي الحجة 488 هـ وأمر ان يكتب على قبره:

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي حقا ظفرت باشلاء ابن عباد

وهكذا انتهى عصر ملوك الطوائف، كما انتهت حياة ابن عباد الذي ولد سنة 431 هـ بمدينة باجة وتوفي بسجن اغمات، وعبرة لمن يعتبر نودي في جنازته بالصلاة على الغريب بعد عظيم سلطانه وجلالة قدره، ووقف على قبره لرثائه شعراء طالما قصدوه بمدائحهم فاجزل لهم العطاء، وعلى رأسهم ابن بحر عبد الصمد في قوله:

ملك الملوك اسامع فانادي ام قد عدتك عن السماع عوادي

ثم قبل الثرى ومرغ جسمه وعفر خده، فبكى وابكى كل من حضر.

وبعد ان اسدل الستار الى الابد على عصر ملوك الطوائف بما فيه من حوادث وخطوب ودسائس وحروب. بدأ عهد الدولة المرابطية الفتية الزاهر. إذ ما ان أطاح يوسف بعروش ملوك الطوائف حتى استولى على العدوتين، وتواصلت هزائم النصارى على يده، فاستولى على الجنوب. واحس بخطر القمبياطور في الشرق الذي تزعم معركة الاسترداد -بعد ان تخلى عنها الفونسو الذي مني بهزائم متوالية مع المرابطين- فلم يلبث ان أرسل قائده ابن عائشة الى بلنسية كنجدة ثانية لقاضيها ابن جحاف لكنها وصلت بعد فوات الاوان، وبعد تسليم بلنسية، واحراق ابن جحاف والتنكيل بالسكان، فاعد يوسف حملة هائلة لاسترجاعها سنة 495 هـ [1] بقيادة محمد بن الحاج، الذي انزل بالنصارى هزائم ساحقة، وقتل ابن القمبياطور الوحيد، وهزم البرهانس.

أما المعركة الفاصلة فقاد حملتها قائده الاعظم محمد بن مزدلى الذي أعاد بلنسية إلى حظيرة البلاد، فكانت معركة لا تقل أهمية عن الزلاقة، خلدها الشعراء والكتاب. وبسقوط بلنسية انهارت جبهة النصارى، وتوثقت الصلة بين المرابطين وبني هود بسرقسطة على حدود النصارى فصدوا القوات الصليبية واوقفوها عند نهر الابيرو، وايدوا يوسف فغفر لهم ما تقدم من مواقفهم الاولى، بل ظل يمدهم بالعون ليردوا عادية العدو، ويوقفوا سيله العارم ويصدوا تياره.

(1) البيان المغرب ج 3 ص 306

وما أن انتصر المرابطون في الشرق -بعد الجنوب- حتى توجهوا الى قشتالة بالشمال وكبدوا الفونسو خسائر فادحة، اذ لم يذق طعم النصر في أية معركة منذ الزلاقة واتحاد المسلمين تحت راية يوسف المرابطي. [1]

وكان آخر عبور ليوسف الى الاندلس سنة 497 هـ متوجا بأكاليل النصر، تخفق اعلامه وبنوده في ربوع البلاد، شاعرا بالرضى لرسوخ اقدام الاسلام في شبه الجزيرة، فرأى ان يأخذ البيعة لولده علي بقرطبة بعد ان أخذها له بالمغرب، وتولى كتابة عهده -الذي سنأتي على دراسته مع بقية اثاره- كاتبه الملازم لركابه ابو بكر بن القصيرة.

وعاد يوسف الى المغرب سنة 498 هـ حيث مرض وتوفى في محرم سنة 500 في المائة من عمره، [2] ولم يقدر له أن يرى نهاية عدوه الفونسو بل جنى ثمار نضاله -طيلة عشرين سنة-، ولده علي بن يوسف، حيث هزم الفونسو عند (اقليص)، وقتل ولده واهم رجاله فلم يلبث ان مات هو -غما وكمدا- بعد عام واحد. وبموته فقدت حركة الاسترجاع بطليها القمبياطور والفونسو.

وإذا كان علي بن يوسف قد اتم رسالة أبيه وحقق آماله في الميدان السياسي والحربي، فإنه في الميدان الأدبي قد احتفظ بكاتبه ابن القيصرة على رأس ديوانه حتى أواخر أيام حياته، -رغم كبر سنه- لكفاءته ومهارته. فقد "اشتملت عليه الدول الثلاث: العبادية والمعتمدية والدولة اليوسفية وهذه الدولة العلوية". [3]

الحياة الثقافية في عصر الطوائف والمرابطين

إذا نحن تركنا عصر ابن القصيرة السياسي -بماله وما عليه- الى عصره الأدبي، وجب علينا أن نتجرد عن جميع النزعات والاهواء، ونترك العواطف والمشاعر الخاصة، ونبتعد كلية عن المحلية والاقليمية الضيقة، إذ من الانصاف لملوك الطوائف أن نذكر رعايتهم للحركة الادبية حتى كانت عواصمهم أسواقا لها، بل كان منهم أدباء وشعراء كملكي بطليوس والمعتضد والمعتمد ملكي اشبيلية، وكان أكثرهم يجالس العلماء والادباء والفلاسفة ويحاضرهم، فقطعت العلوم والاداب والفنون أشواطا بعيدة المدى في تلك الفترة التي تعتبر بحق من أزهى عصور الاندلس، كون فيها الفن الاسلامي العربي حلقة من أروع حلقات الفنون في القرون الوسطى.

(1) قيام الدولة المرابطية ص 321

(2) المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثالث ص 252

(3) البيان المغرب ج 4 ص 60.

وهكذا وجدت الحركة العلمية والادبية نصيرها في هؤلاء الملوك، لان فرار العلماء من قرطبة أثناء الفتن سبب تعميم المعرفة ونشرها في أطراف البلاد لأنهم تفرقوا في المدن والقوى، فنشروا علمهم في كل مكان. وكان نتيجة الحرية الواسعة التي منحها ملوك الطوائف للرعايا أن أقبل الناس على الفلسفة والرياضيات بلا تكتم ولا تحفظ، بدليل قول صاعد الاندلسي:

"فالحال بحمد الله أفضل....في اباحة تلك العلوم والاعراض عن تحجر طلبها: [1]

فعصر الطوائف لم يتقدم له نظير في تاريخ الادب الثقافي، إذ خصب الانتاج في سائر فروع المعرفة، وخاصة الادب الانشائي من نثر وشعر. فقد تهيأت لاهل الاندلس أسباب الشعر، فانطلقت به السنتهم، وزادت طبيعة بلادهم وأحوال عصرهم في تاجج عواطفهم، فأقبل عليه النساء والرجال، وصار الشعر عندهم الدعامة الاولى للثقافة، يتدارسونه مع القرآن الكريم، فطبعوا على قوله وشغفوا به، لكن حياة الشاعر في بلاطهم لم تختلف عن حياة شعراء الشرق فهو عبد صنعته وسيده، لذا لم يجدد ولم يعط شعرا صادق العاطفة مما نجده عند الشاعر الشخصي الذاتي الذي ترك شيطانه طوع قلبه وعاطفته ومواهبه ولم يخضعه للمال أو السلطان". ويضيق المقام عند تفصيل القول في جميع ملوك الطوائف، لذا سأقتصر في هذه العجالة على تبسيطه في أشهرهم وما امتازوا به في ميادين الثقافة والفكر والادب والفن:

كبني هود الذين كانوا هم أنفسهم فلاسفة وعلماء، وعاش في ظلهم بسرقسطة فلاسفة كابن جبرون وابن باجة، والطرطوشي.

وكان بنو ذي النون -وهم من برابرة هوارة- من انصار العلم والادب، فازدحم قصرهم بالعلماء كابراهيم بن يحيى النقاش عالم الفلك، ومحمد بن بصال، والنحوى الوقاش، واحمد بن مغيث صاحب كتاب المقنع.

وفي بطليوس احتلت الثقافة والادب مركزا أساسيا بفضل بني الافطس -من قبائل مكناسة- إذ خدم بلاطهم ابن عبد البر القرطبي الفقيه المحدث، ورثاهم ابن عبدون بقصيدته الشهيرة:

ويكفي بني جهور في قرطبة فخرا نشأة ابن حزم في اكنافهم، الذي قال عنه بلاسوس: "ان ابن حزم بتأليفه "كتاب الملل والنحل" قد سبق علماء اوربا بقرون، لان تاريخ

---

(1) الادب الاندلسي ج 1 ص 56.

الديانات لم يظهر فيها الا في القرن التاسع عشر" ومن نبغاء قرطبة في بلاطهم ابو الوليد ابن زيدون، وابو مروان بن حيان، صاحب كتاب" المشين " في ستين مجلدا .

وكان بنو طاهر، وبنو صمادح، في بلنسية ومرسية والمرية، شعراء وأدباء، وفي ظلهم نجد الوزير ابن عباس، وابن عبادة، وابن شهير، وفي اكناف بني صمادح نبغ البكرى في الجغرافية، وفي بلنسية ابن خفاجة، والنحوى اللغوي ابو الحسن على بن اسماعيل صاحب كتاب "المخصص".

ونجد على رأس ملوك الطوائف بني عباد بإشبيلية (414- 484 هـ) إذ كانوا يتزعمون الحركة الادبية، بل كان جلهم أدباء وشعراء -كما تزعموا السياسة- فاجتمع في بلاطهم بإشبيلية وقرطبة، مالم يجتمع لغيرهم من الشعراء والكتاب المتفننين في النظم والنثر، كذى الوزارتين الاديب الكبير والفقيه الجليل والكاتب البارع ابن القصيرة، وعبد الجبار بن حمديس الصقلي، وأشهر شعرائهم ابن زيدون، وابن اللبانة، وابن وهبون، وابن عمارة، وعلى رأسهم ملكهم المعتمد بن عباد. والواقع اننا لا نجد وصفا لهذه الدولة اصدق من وصف الشقندى: " وان كان كل ملوك الاندلس... قد تنازعوا في ملاءة الحضر فإني أخص منهم بني عباد... فإن الايام لم تزل بهم كأعياد، وكان لهم من الحنو على الادب مالم يقم به بنو حمدان في حلب، وكانوا هم وبنوهم ووزراؤهم صدورا في بلاغتي النظم والنثر مشاركين في فنون العلم... وقد خلدوا من المكارم التامة، ماهو متردد على السنة الخاصة والعامة." [1] ولا غروفهم احفاد المناذرة، المعروفين بتقريب الادباء والشعراء كالنابغة وحسان.

ومن أشهر ملوكهم الشعراء المعتضد، قال الحميري: "كان ابو عمرو عباد صاحب اشبيلية من أهل الادب البارع، والشعر الرائع، وقد رأيت له سفرا صغيرا في نحو ستين ورقة من شعر نفسه فمن شعره قوله:

شربنا وجفن الليل يغسل كحله ... بماء صباح والنسيم رقيق
معتقة كالتبر اما نجارها ... فضخم واما جسمها فدقيق

(1) نفح الطيب ج 2 ص 128.

وكان ابنه المعتمد اشعرال عباد واكثرهم رعاية وتقريبا للعلماء والادباء، وأجودهم مع الشعراء، فأكثروا من مدحه، وكان هو يمثل الشاعر الاندلسي احسن تمثيل، وصور شعره مراحل حياته أدق تصوير، فجاء تعبيره أفصح، وعاطفته أصدق، فان وجدنا غزلا هادئا، وحبا صادقا، ففي المرحلة الاولى من حياته كقوله:

فتكت مقلتاه بالقلب مني ... وبكت مقلتاي شوقا اليه
فحكى لحظه لنا سيف عبا ... د ولحظي له سحاب يديه

وإذا وجدنا له فخرا وحماسة أو رثاء ففي المرحلة الثانية منها، وإذا رأينا بكاء وحسرة على الماضي، ففي المرحلة الثالثة والاخيرة من حياته كقوله:

قبح الدهر فماذا صنعا ... كلما أعطى نفسا نزعا

ومما يدل على ازدهار الحركة الادبية في دولته مشاركة المرأة فيها مشاركة فعالة، سواء بجمالها الذي حرك نفوس الشعراء للغزل والنسيب، أو بإنتاجها كالمشرقية إلا أنها اسبانية أو أوربية وليست فارسية او رومية. وقد تعلمت النساء في الاندلس الادب والفن على يد الجواري الوافدات من الشرق ممن علمهن زريات كعايدة، وفضل، وقمر اللواتي علمهن الاندلسيات والادب والغناء والالحان، مما اثمر جيلا اندلسيا أديبا في هذا العهد، كاعتماد الرميكية جاريته، وابنته بثينة، وغيرهما ممن ساهمن في ازدهار الحركة الادبية في هذا العهد قال ابن القطان عن المعتمد: "إنه اندى ملوك الاندلس راحة، وأرحبهم ساحة، وأعظمهم ثمادا، وارفعهم عمادا". [1] وان رواج الشعر زمن ملوك الطوائف عموما، وبنى عباد خصوصا لانجد له شبيها حتى في الشرق الاسلامي، فهو ظاهرة وطنية، ساعدتها ظروف المحيط السياسية والاجتماعية والطبيعية، فقالوا في كل الاغراض، ولاسيما شعر الطبيعة الذي امتازوا فيه على العالمين، لجمال الاندلس وبهائها قال المقري: "إن محاسن الاندلس لا تستوفي بعبارة" لذلك تعلق بها الاندلسيون، واقبل الشعراء على وصف مباهجها حتى راوها جنة كابن خفاجة في قوله:

يا أهل أندلس لله دركم ... ماء وظل وأشجار وانهار
ما جنة الخلد الا في دياركم ... ولو خيرت هذى كنت اختار

(1) أعمال الاعلام ج 3 ص 189.

ومما زاد في ازدهار شعر الطبيعة الحياة اللاهية التي عاشها الشعراء، فصوروا اللهو والحب والخمو في إطار الطبيعة.

وحق في أعناقنا للمعتمد، ان نوفيه ما يستحقه من المدح والثناء والتعظيم والتبجيل -ونحن ندرس عصره من الناحية الادبية- لكننا انصافا لابن تاشفين، وخدمة للحقيقة التاريخة والعلمية نقول: ان مواقفه السياسية لم تكن مشرفة، فهو لم يستدع يوسف الا اضطرارا وتحت ضغط الفقهاء والعلماء، ورضوخا للارادة الشعبية واجماع الامة، ثم انه أراد استغلال يوسف لمصلحته الخاصة، والتخلص منه نهائيا، ولما غلب على أمره لم يتورع عن استدعاء الفونسو وممالاته ضده، يقول ابن الخطيب "ولما ضاق به الامر جدد مراسلة سلطان النصارى يستصرخ به ويطمعه، فكانت بينهم وبين جيوش المرابطين وقعة تناصف فيها المسلمون، وعند ذلك يئس ابن عباد وأيقن بالغلبة". (1)

ومما يؤكد لنا أنه لم يحضر الزلاقة الى جانب يوسف قلبا وقالبا، انه رغم شاعريته الوقادة لم يقل فيها ولو بيتا واحدا، بينما نجده يملأ الدنيا شعرا حين نكب في نفسه وملكه، وثكل في بنيه وصبت عليه المصائب صبا فقد قال بمجرد خلعه:

قالوا الخضوع سياسة	فليبد منك لهم خضوع
والذ من طعم الخضوع	على فمي السم النقيع

وقال أيضا:

انباء اسرك قد طبقن آفاقا	بل قد عممن جهات الارض اقلاقا
فاحرق الفجع أكبادا وأفئدة	واغرق الدمع اماقا واحداقا

وقصده الشعراء وهو أسير فقال:

سالوا العسير من الاسير انه	بسؤالهم لاحق منهم فاعجب
لولا الحياء وعزة لخمية	طى الحشا ساواهم في المطلب

وكما أثار اسره كوامن عواطفه أثار عواطف الشعراء حسرة عليه لأنه كان مصدر رزقهم ومحط آمالهم كابن اللبانة الذي سطر حياة المعتمد في شعره فيمكن اتخاذه مرجعا لهم.

(1) أعمال الاعلام ج 3 ص 189.

وقال في وداعه بعد اسره:

من لي يا بني مـاء السـمـاء اذا ماء السماء ابى سقيا حشا الصادي

وكان من شعرائه: ابن عمار -الذي لازمه منذ ان كان واليا على اشبيلية من قبل أبيه المعتضد- وابن زيدون وابن اللبانة، والخصرى -الذي استجداه في منفاه، فعاب عليه المؤرخون سوء عادته في الكدية- وابن حمديس الصقلي، وعلى بن حصن وابن القصيرة، الذي كان شاعره وكاتبه وسفيره ووزيره وأمين اسراره.

وجملة القول ان المعتمد كان ايام نعيمة وبؤسه نعمة على الادب، بما قاله هو في وصف مشاعره، وما قاله الشعراء فيه، وقد ظفرت الاندلس في عهده بأكبر حظ من النشاط العلمي والادبي، مما يذكرنا باليونان في عصورها القديمة، وتنافس أثينا واسبرطة، وكان أزهى عصور اليونان. كما يعد عصر الطوائف عموما وبني عباد خصوصا أزهى عصور الاندلس أدبا مما استمر في عصر المرابطين الذي يعتبر بحق عصر الاندلس الذهبي، حضاريا وثقافيا وأدبيا وعلميا وعمرانيا وعسكريا...

وإذا كان عزل المعتمد يمثل فاصلا وحدا بين عهدين في تاريخ الاندلس، فقد كان ايذانا بقيام الدولة المرابطية في الاندلس، وإذا كنا قد استوفينا هذا الموضوع بالدرس والتمحيص من الناحية السياسية والتاريخية، فإنه يجب تتميما للفائدة، وتوضيحا لجوانب مهمة من حياة أديبنا ابن القيصرة ان نقوم بجولة أخرى في عصر المرابطين باحثين عن مدى ازدهار أو انحطاط الحركة العلمية والادبية، إذ هما ادق معيار تقاس به حضارة الامم، وتقدم الشعوب، ونجاح الدول...

لقد اختلف الباحثون فيما كانت عليه الحركة العلمية والادبية ابان حكم المرابطين، وتضاربت آراؤهم وأحكامهم، وجاء المستشرقون بنتائج ومعلومات خاطئة واهية الاسس كالعلامة دوزي الذي زعم ان الاندلس تأخرت في عهد المرابطين، واعتبر عهدهم عهد فتور وانحطاط، في جميع مرافق الحياة الادبية والسياسية والاقتصادية، ورسمه بصور مشوهة، والوان قاتمة، ومما قال عن شعر هذا العصر:

"وصار الشعر مراة صادقة لذلك الزمن، فمن قوى خفيف الروح عديم المبالاة، الى شعر مملوء بالخشية والترهيب والترغيب، كئيب ديني. وإذا أراد الشعراء تقليد المثل العليا السابقة سقطوا في التكلف والابتدال، فليس هنالك الا مدائح باردة متكلفة موجهة الى

الامير باعتباره ممثلا للاله وعواطف ورع سخيفة، مصاحبة لفساد في الاخلاق، وانحلال تام للنظام الاجتماعي.

فرايه رأي عاطفي محض، لا يستند الى حجج دامغة أو برهان معقول، وإننا لنشم منه رائحة تلك العصبية الممقوتة التي روج لها بعض الكتاب والمؤرخين المتأثرين بالنزاع بين العرب والبربر منذ أيام الفتح الاولى مثل ما نجد في رسالة عبد الملك بن مروان الى عقبة: "وما أمامك الا البربر وهم مثل البهائم" كما نشم منه رائحة تلك النقائص التي كان يسم بها المرابطين بعض المرتزقة من أذناب ملوك الطوائف، أو مسيحي الشمال الذين تعاملوا معهم على حساب شعوبهم ومصالحها، ولما جاء المرابطون ضيقوا عليهم الخناق، فنشروا آراء متعصبة ضدهم. لان يوسف بن تاشفين صدهم عن التعيش من امتصاص دم الشعب، ورفع عن المجتمع ذلك العبء الذي اثقل كاهله أيام ملوك الطوائف.

وقد لازمت دوزي هذه النزعة في سائر كتاباته عن المرابطين والطوائف حتى لكاني بلسان حاله يتحسر على مجيء ذلك المنقذ الذي اخر خروج المسلمين عن الاندلس، بل هو يفاضل حتى بين ملوك الطوائف أنفسهم، ويقدح في من ينتمي منهم لأصل بربري مغربي ويذمه. كمقارنته بين باديس صاحب غرناطة والمعتضد. ومما يؤكد لنا أن هواه كان مع ملوك الطوائف اننا نجده يغفر للمعتضد احراق كتب العلامة ابن حزم، لكنه يجد من الجهل والتعصب والوحشية إحراق فقهاء المرابطين لكتاب الاحياء.

وإذا كان دوزي قد اعتمد على ما جاء عن الامير على بن يوسف بن تاشفين في كتاب المعجب لعبد الواحد المراكشي، فلماذا لم يعلق على قول المراكشي أيضا: "وانقطع الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى اشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم، عهد الرشيد والمامون، واجتمع له ولابنه من بعده من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة مالم يتفق اجتماعه في عصر من العصور [1].
وممن كتب لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين كاتب المعتمد على الله ابو بكر محمد بن محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة، وأبو محمد عبد المجيد بن عبدون ويقول المراكشي في موضوع آخر في هذا الصدد: "ولم يزل أمير المسلمين من المرابطين من أول امارته يستدعي آعيان الكتاب من جزيرة الاندلس، وصرف عنايته الى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك" وإذا كان الحق ما شهدت به الاعداء، فإن الصواب ما قاله العلامة

---

(1) الادب الاندلسي ج 1 ص 71 و 72

الاسباني قديرة الذي قال حين طرقه الموضوع: "إنني لأجد في حكم العلامة دوزي على المرابطين تحاملا يرجع فيما اعتقد الى عداوته (للاكليروس) في المسيحية وتطبيقه تلك العداوة على فقهاء المسلمين". [1]

ويمكننا ان نراجع العلامة الهولندي دوزي قائلين: ان حكم المرابطين لاسبانيا لم يتعد أربعين سنة، وعواصم الاندلس كانت غاصة وحافلة بأهل العلم والادب على عهد ملوك الطوائف، فحتى إذا سلمنا جدلا بتزمت الدولة المرابطية، وعدم كفاءتها وجدارتها، فإن مدة حكمها غير كافية لأن تنزل بالعلم والادب من أعلى عليين الى أسفل سافلين، -كما يريد أن يقنعنا دوزي-، إذ ليس من المعقول في شيء ان تتبلد العواطف، وتموت المشاعر، وتصدأ العقول، وتركد ريح الثقافة، وتكسد سوق العلم والادب، -مما يتطلب قرونا وأجيالا-، في مدتها الوجيزة الامد، التي لا تصل نصف قرن.

وإذا نحن تركنا أقوال النقاد القدماء سواء العادلة أو الظالمة وضربنا عرض الحائط بآراء دوزي في هذا الموضوع وغيره من المستشرقين المغرضين الحاقدين الذين في قلوبهم مرض، فإننا لا نجد في عهد المرابطين ما يدل على تاخر أو انحطاط الحالة الفكرية، فالعلوم التي كانت تدرس لازالت سائدة، ومراكز التعليم المختلفة ظلت غاصة بالطلاب مزدهرة، والرحلة في طلب العلم متبادلة بين الاندلس والمشرق، وبينها وبين المغرب وغيره من جامعات المغرب العربي، ولم تقم الدولة المرابطية بأية مضايقة أو تعقب للعلماء يضطرهم للاختفاء أو الهجرة من البلاد، بل هي لم تغير حتى نوع الحكم في البلاد فتركت اللامركزية التي كانت سائدة على عهد الطوائف، واكتفت بتعيين الولاة بدل الملوك السابقين، وهؤلاء الولاة قلدوا ملوك الطوائف في حياتهم الخاصة والعامة، فكما اقتبسوا عنهم الكثير من نظمهم، قلدوهم في تشجيع الادباء والشعراء وتقريب العلماء، حتى إن بلاطاتهم شبهت بلاطات ملوك الطوائف، كابي بكر والي قرقسطة، الذي استكتب أبا بكر ابن السائر المعروف بابن باجة. وكفانا استشهادا بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، الذي استكتب أبا بكر بن القصيرة كاتب المعتمد من قبل وغيره.

وكان من نتيجة روح الجهاد التي بثها يوسف في الاندلس والانتصارات الباهرة التي حققها للاسلام والمسلمين ان ظهر في عهده ما يمكننا ان نسميه بتجاوز شعر الملاحم عند ابي

(1) الادب الاندلسي ج 1 ص 75 و 76.

طالب عبد الجبار الذي نظم أرجوزة في يوسف بن تاشفين -على غرار أرجوزة ابن عبد ربه في وصف حروب الناصر وغزواته- في 450 بيتا وجعلها أطول منها وأشمل، وهي لا تختلف عن اليادة هو ميروس الا في كونها اشبه ما تكون بالتاريخ المنظوم وليس فيها خيال ولا افتخار بل ملئت بمعلومات كثيرة، كالدلالة على وجود الله، وبدء الخليقة، وسير الخلفاء ومطلعها:

ابدا باسم الله في الترجيز رب الانام الملك القدير

إلى أن يقول في يوسف:

فإذا اراد الله نصر الدين استصرخ الناس ابن تاشفين

أما في النثر، فإذا كانت الاندلس عرفت كل مذاهب الشرق، وقلدتها حتى في الانتقال من فن الى فن، فقد قلدت في هذا العصر بالذات بديع الزمان والحريري، فحبر كتابها رسائل على منوالها من سجع ملتزم قل ان يشذ، كما نجد لهم ابتكارات سبقوا بها المشرق بل إن كثيرا من أدباء عصر المرابطين جمعوا بين الشعر والنثر طرفي الادب الانشائي، ناهيك بشاعرنا وكاتبنا ابن القصيرة ومعاصريه كابن زيدون، وابن الجد وغيرهما، إذ كانت لهم ملكة مرهفة، يميزون بها بين الموضوعات التي تصلح للشعر، والتي تصلح للنثر. فالأولى عبروا فيها عن وجدانهم، والثانية اعربوا بواسطتها عن أفكارهم، كما امتازوا بالوصف الدقيق، والمناظرات بين بلدان الاندلس، والابتهالات، وخلعوا على نثرهم اخيلة وسجعا مما يقربه الى الشعر المنثور، مع ميل الى الاطناب. فنثرهم يدلنا على باعهم الطويل في ميدان الادب من تنويع في الاسلوب وغزارة في المعنى.

وإذا كان دوزي قد اعمته العصبية، وتغلبت فيه صليبيته وعنصريته على الروح العلمية السمحة، فإننا نجد مستشرقين اسبانيين -كانوا اولى بالتعصب منه واحق وكنا نجد لهم مبررا يدفعهم لذلك- سموا فوق كل النزعات، وترفعوا عن جميع الاغراض، وكتبوا للحقيقة والتاريخ وخدمة للعلم، مثل المستشرق الاسباني خوليان ريبرا الذي نجده يقول: "إن أعلى قمة بلغتها الثقافة في اسبانيا الاسلامية كانت في ذلك العهد الذي كان له من الاثر

في أوربا كلها مالا يماثله الا أثر النهضة الايطالية، عندما عرف الاوربيون المصادر الاغريقية". [1]

ويؤكد رايه المستشرق النزيه بلنسية بقوله: "إن الاستقصاء والبحث يجعلان الحق في جانب خوليان ربيرا، فالشعر وصل إلى درجة عالية، ولم تكن الميادين الاخرى متأخرة عن الشعر". [2]

ويكفي عصر المرابطين فخرا أنه ظهرت فيه أهم ظاهرة من مظاهر رقي الحياة الادبية الا وهي تصدي طائفة من العلماء لدرس وتدريس آداب بلادهم، وحفظ آثار رجالهم من الضياع والنسان، كابن بسام صاحب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة في أربعة أجزاء، وابن بشكوال صاحب الصلة في تاريخ علماء الاندلس من فتحها الى زمانه، والفتح بن خاقان الذي ألف قلائد العقيان باسم أحد امراء المرابطين، والادريسي وغيرهم.

وهكذا يتجلى لكل ذي عينين وكل ذي قلب سليم، ان هذا العصركان عصر ازدهار للحياة الفكرية والادبية، تدارس فيه الناس بكل حرية كل أصناف المعرفة، من طب وفلسفة وعلوم رياضية وتاريخ، كما ظهر فيه أدب شعبي يغنى في الاعياد الاسلامية ومواسم الحصاد والمناسبات القومية يتمثل في زجل ابن قزمان ومدرسته، مما كان له أثره القوي في آداب أوربا، -كما يؤكد لنا ذلك كثير من المستشرقين-، غير أنهم ساروا فيه سيرهم في القصائد والموشحات فخلطوا بين صياغات مذاهب الصنعة والتصنيع والتصنع.

والحقيقة التي لاغبار عليها هي أن عصر المرابطين كان معجزة العصور في التاريخ الاسلامي، فهو عصر الاسلام الذهبي الذي تمثل فيه مجده مجسما، لأنه عصر الادب والعلم، والحضارة والعمران والسيادة والثراء. عصر تتوأمت فيه الاندلس والمغرب، وأصبحا قبلة العالم الشرقي والغربي، وصارت مدنيتهما وثقافتهما مضرب الامثال، عصر توالت فيه أيام المفاخر والمكارم، وسارت فيه الرياح بما تشتهيه السفن. ولو حاولت تفصيل الكلام فيه لما كفاني متسع، ولو توخيت الاقتصار لما أتيت بالمرام، ومع ذلك حاولت اقتطاف كليات وجزئيات من ادابه وتاريخه، ونماذج من شعره ونثره علها تفي بالمراد من هذا الموضوع ألا وهو الالمام الاجمالي بعصر ابن القصيرة العلمي والادبي والفكري والثقافي، في كل من العصرين: عصر ملوك الطوائف عموما والدولة العبادية خصوصا، وعصر الدولة المرابطية.

---

(1) الادب الاندلسي ج 1 ص 77 (2) الادب الاندلسي ج 1 ص 77.

ابن القصيرة: حياته، دراسته، مكانته الادبية والسياسية:

هو ذو الوزارتين الفقيه الشاعر الكاتب أبو بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة الكلاعي [1] الولبى، نسبة إلى ولبة، من عمل اونبة من بعض كور اشبيلية. [2]

نشأ في دولة المعتضد فكان عالما جليلا، عفيف النفس، مترفعا عن الدنايا، ويعد في طليعة أعيان اشبيلية،[3] وقد تفطن لمواهبه المتوهجة ونباهته أبو الوليد ابن زيدون، فاعتنى به وقدمه للمعتضد [4] الذي اعجب به أيما اعجاب، وصار يدنيه منه، ويعلى منزلته لديه حتى قربه في آخر أيامه وجعله من خاصته. قال ابن بسام: "الى أن أفضى الامر الى المعتمد، -وأحسبه قد كان في أيام ابيه من بعض من يداخله ويصافيه-".

ولما خلف المعتمد أباه المعتضد زاد في تقريبه، فأنعم عليه بالوزارة، واتخذه سفيرا له الى حلفائه من ملوك الطوائف، [5] كما اتخذه سفيرا بينه وبين يوسف بن تاشفين مرارا، [6] فأظهر من اللياقة وحسن السياسة ما بقي شاهدا له بطول الباع في هذا الميدان، مما زاد من قيمته لدى المعتمد، فعظمت مكانته لديه آخر دولته، وأطلق يده في شؤون دولته بعد ان أولاه ثقته قال ابن بسام: "فعظمت حاله، واتسع مجاله، واستولى على الدولة استيلاء" وقال الفتح بن خاقان: "اخبرني ذو الوزارتين أبو بكر بن القيصرة، انه كان بغرفة القصر المكرم مقيما لرسوم المعتمد وحدوده، ومنشئا لمخاطباته وعهوده".

ولما تنكر الدهر للمعتمد، فخلع ونفي وتفرق أنصاره، وتبددت حاشيته ايدي سبا، هرب ابن القصيرة -شان كل من كان في مكانته في مختلف العصور- ونكب في جملة من نكب، [7] غير أني استقريت جميع المراجع التي ذكر فيها هذا الأديب دون أن أتوصل لمعرفة نوع النكبة التي حلت به، لكنها جميعها اجمعت على أنه نكب، وعلى كل يكفيه نكبة ضياع الوزارة والمكانة والسلطة، والهيام على وجهه فارا بنفسه، خائفا يترقب. قال ابن بسام: "الى ان كان من خلعه ما كان، فكان ذو الوزارتين احد من هرب، وفي جملة من نكب. "ويقول الفتح بن خاقان: "..... بعد خطوب اصارته طريدا وقطعت منه وريدا" [8] و"الى ان نكب مع المعتمد". [9]

---

(1) الاعلام بمن حل بمراكش واغمات ج 2 ص 351
(2) المغرب في حلى المغرب ج 1 ص 350
(3) مخطوط الذخيرة لابن بسام ج 2 ص 99
(4) الذخيرة ج 2 ص 99
(5) الذخيرة ج 2 ص 100
(6) م الذخيرة ج 2 ص 100)
(7) م الذخيرة ج 2 ص 100
(8) قلائد العقيان ص 117
(9) المغرب في حلى المغرب ج 1 ص 350.

وطالت مدة نكبته الى ثلاث سنوات، قاسى أثناءها من الضياع والتشرد والحرمان ما الله به عليم "وأقام على تلك الحال نحوا من ثلاثة أحوال" [1] الى ان كان يوم ورد فيه على أمير المسلمين ابي يعقوب يوسف بن تاشفين كتاب من صاحب مصر، -كان لابد من الجواب عليه-، فاستعرض يوسف بن تاشفين مع خواصه اسماء مشاهير الكتاب، ممن يكون أهلا وكفءا للقيام بهذه المهمة الجليلة، -حتى يباهي به كتاب مصر، ويفحمهم-، فكان ذو الوزارتين ابن القصيرة في طليعة من ذكر له، وسرعان ما وقع اختياره عليه -خاصة وهو فقيه- وما أحب الفقهاء الى يوسف وأقربهم الى قلبه-، فسرعان ما استدعاه، واسند اليه الكتابة في دواوينه، وبالغ في إكرامه واجلاله حتى عوضه عما أصابه.

"وحدث أن سبب ذلك الذكر كتاب ورد من صاحب مصر، لم يكن بد من الجواب عليه... وتفقد يومئذ اعلام المشاهير، فكان ذو الوزارتين أقرب مذكور، فاستدعاه لحينه، وولاه كتبة دواوينه ورفع شأنه، حتى انساه زمانه "[2] ويقول حسن احمد محمود في هذا الصدد: "فما ان استقر في الاندلس حتى اتخذ دواوين ولى عليها كاتبا من رجال الادب في الاندلس يدعى أبا بكر بن القصيرة" [3] ونجد "ثم اشتمل عليه أمير الملثمين". [4]

وبلغ من مكانته لديه ان صار له بمثابة ظله، لا يفارقه اينما حل وارتحل: "دخل غرناطة غير مامرة وحده وفي ركاب اميره" [5] ويقول ابن الخطيب عنه: "ابو بكر كاتب الدولة اللمتونية وعلم وقته". [6]

وظل في ركب يوسف بن تاشفين يشرف على دواوينه، ويراسل انداده، ويكتب عهوده كعهد تولية قاضي الجماعة بقرطبة، عبد الله بن حمدين، وعهد البيعة لولي عهده ولده علي. الى أن توفى سنة 508 هـ، عن سن عالية وخرف اصابه قبل موته، عطله بحضرة مراكش". [7]

ويقول العماد الاصبهاني: "واشتملت عليه دولة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اشتمال الجفن على البصر، والاكمام على التمر، والهالة على القمر، الى أن أضمر رمسه، وكورت شمسه" [8] ويقول الفتح بن خاقان: "ومازال يرتضع اخلاقها ... ويسيم ببيانه عقلها، ويتمم فرضها ونفلها، حتى طواه ضريحه وركدت ريحه". [9]

---

(1) الذخيرة ج 2 ص 100 — (2) الذخيرة الجزء 2 ص 100 — (3) قيام الدولة المرابطية ص 359
(4) المغرب في حلى المغرب ج 1 ص 350 — (5) صورة مخطوط الاحاطة ص 65 — (6) صورة مخطوط الاحاطة ص 65
(7) الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام ص 351. (8) جريدة العصر ج 3 ص 83 — (9) قلائد العقيان ص 117.

واجمعت كل المصادر التي اوردت ابن القصيرة على أنه ظل في خدمة يوسف الى آخر رمق من حياته، كما نفهم من بعضها انه اختل عقله في أيامه الاخيرة بعد ان هرم وشاخ، وخدم أربعة ملوك سلخ في ظلهم اعز أيام شبابه ورجولته وكهولته، فقد خدم المعتضد يافعا، ولازم المعتمد شابا ورجلا ناضجا واستاثر به يوسف في كهولته، واختص به ابنه علي في شيخوخته.

فلا غرابة ان يختل عقله وهو الذي مثل اربع دول سياسيا وأدبيا، فكان منها جميعا بمثابة الرأس المفكر، والرأي المدبر، واللسان المعبر، ومما يدعو للاعجاب به ويشهد له باللباقة والكياسة وحسن التصرف قدرته الخارقة على إرضائهم جميعا، مع اختلاف مشاربهم، وتعارض آرائهم، وتناقض مذاهبهم، فلم يسمع عنه قط ما سمع عن غيره من الوزراء، ولم يكن في يوم من الايام عند أحدهم موضع شك او ريبة، ولا محل اتهام، كما لم يكن يوما هدفا لعقاب. ولعل ذلك كان سبب خمول ذكره وركود اخباره، رغم مكانته السامية.

دراسته وثقافته:

إذا كنا نجهل المناهل التي غرف منها ابن القصيرة ثقافته الواسعة المتنوعة، فانه يمكننا القول ان دراسته الاولى لم تختلف كثيرا عن دراسة سائر أدباء عصره، من التعلم في قرية متواضعة او مدينة صغيرة، -وهي ولبة بالنسبة اليه-، ثم في مدينة كبيرة عاصمة الاقليم اشبيلية، ثم حياة هائمة، حتى يتصل بأمير كريم. [1]

ونستشف من بعض المراجع اسماء بعض اساتذة هذا الاديب الكبير الذي طوته يد الاهمال رغم أدبه الناطق. ذلك اننا نجد ابن الخطيب يقول: "روى عن الحجاج الاعلم، والحسن بن شريح" [2] ويقول عباس ابراهيم المراكشي في نفس الصدد: "اخذ عن ابي مروان بن سراج وغيره". [3]

وكما جلس للدرس والتحصيل على هؤلاء ابى الا ان يشارك في ميدان التعليم، فجلس للتدريس والتعليم، يقول ابن الخطيب: "روى عنه ابو الوليد مسلم بن يوسف بن الملجوم، لقيه بمراكش". [4]

(1) قيام دولة المرابطين ص 268

(2) صورة مخطوط للاحاطة ص 64

(3) الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام ج 2 ص 351

(4) صورة مخطوط الاحاطة ص 64

وهكذا كان أديبنا عضوا نافعا فعالا، اخذ واعطى، وأفاد واستفاد، وشارك في جميع ميادين الحياة في عصره، من تعليم وسياسة وأدب وكتابة، فبرهن على مقدرته ومهارته وكفاءته في جميعها، لذلك اجمعت المصادر وعلماء عصره، والعصور التالية على انه جمع كل معارف عصره. فقد كان وزيرا فقيها عالما أديبا شاعرا كاتبا أستاذا وخطاطا. فلنستمع إلى هؤلاء المؤرخين للادب والادباء الذين اوردوه، ولنمعن النظر في صيغهم التي عبروا بها، ونستوحيها لتعرب لنا عما كان هؤلاء العلماء والادباء يكنونه لهذا العلامة الجليل وبالتالي لتعطينا حقيقة المكانة التي كان يحتلها بين ادباء عصره وحقيقة الدور البناء الهادف الذي قام به في وسطه ومجتمعه...

فابن بسام يقول: "ذو الوزارتين الفقيه الكاتب،[1] وابن الخطيب يقول عن ابن الصيرفي: "الوزير الكاتب الناظم الناثر... اجتمع له براعة النثر وجزالة النظم" [2] كما قال عنه ابن عبد الملك: "وكان كاتبا مجيدا بارع الخط". [3]

والى جانب كل هذا كان مشاركا في الحياة الادبية العامة، اذ كان ذؤوبا على حضور المحاضرات والمناظرات العلمية، بدليل حضوره في مجلس من هذا النوع اعدته للكتاب والشعراء الحرة حواء اللمتونية، على غرار مجالس سكينة بنت الحسين، فقد كانت الحرة لا تكتفي بجمعهم، بل تشاركهم مشاركة فعالة، وتناظرهم وتبزهم. [4] وهذا ان دلنا على شيء فإنما يدلنا على حرص ابن القصيرة على المشاركة الادبية، والاطلاع على ما يجد في ميدان الادب عن طريق المواظبة على حضور مجالسه، وولوج انديته، ولو كانت للنساء، فاحرى الرجال.

ومما يؤكد لنا سمو نفسه ورفعة اخلاقه تلك العلائق الطيبة، والصداقة الخالصة، التي كانت تربطه بإنداده من العلماء والادباء والوزراء، والتي خلدتها لنا رسائله الاخوانية، كرسالته للفتح بن خاقان، ورسالته لابي القاسم محمد بن عبد الله بن الجد، اللتين تعتبران نموذجا لما يجب ان تكون عليه علاقة النخبة المثقفة، والرعيل المفكر، ورواد العلم والعرفان من طلائع الامم والشعوب، وما يجب ان يسودها من احترام متبادل، وود وصفاء لتتعاون على ما فيه الصالح العام، وخير البلاد والعباد.

---

(1) الذخيرة ج 2 ص 57

(2) صورة مخطوط الاحاطة ص 64

(3) صورة مخطوط الاحاطة ص 64.

(4) البيان المغربي الجزء 45 ص 57

مكانته الادبية والسياسية

مما لا جدال فيه ان ابن القصيرة كان يتمتع بمكانة سامية في عصره، ولا غرو فقد تلقى علمه على نخبة من جهابذة العلماء، حتى صار في عداد الاعيان المبجلين. ثم لما غزرت مادته جلس للتعليم. وقد جمع الى علمه الغزير وثقافته الواسعة، ظرف الكتاف الشعراء والادباء، وخبرة السياسيين ومهارتهم.

كما كان واسع الافق متصلا بالحياة يتردد على مجالس العلماء والادباء، ويشارك في محاضراتهم ومناظراتهم مشاركة فعالة، مما رفع شانه واعلى قدره وأذاع صيته، فتعاقب ملوك عصره وتواضعوا على تقريبه، والاستفادة من خبرته الواسعة، فاستكتبوه واستوزروه، فقد "اشتملت عليه الدول الثلاث: العبادية المعتمدية، والدولة اليوسفية، وهذه الدولة العلوية". [1]

ويكفينا دليلا على مكانته العلمية في عصره وعلو قدره، تقلبه في عدة مناصب، سياسية وأدبية في الدولتين: العبادية والمرابطية رغم اختلاف مشاربهما، وتناقض مبادئهما، وقيام الاخيرة على انقاض الاولى.

فقد احرز على إعجاب وتقدير الوزير الكاتب الشاعر ابن زيدون، ثم على صداقته وثقته، مما شجعه على تقديمه للمعتضد الذي لم يلبث -رغم غلظته وشدته- ان تفطن لفضله، فقربه وجعله على رأس جلسائه وخواصه. وما ان تولى المعتمد الحكم حتى حظي ابن القصيرة بإعجابه وتقديره فأولاه ثقته، وأصبح يده اليمنى في كل ما يبرمه، وسرعان ما القى اليه مقاليد الوزارة، ورئاسة ديوان الكتابة، واستودعه اسراره فبعثه سفيرا في جلائل امور دولته بينه وبين ملوك الطوائف اولا، ثم بينه وبين يوسف ثانيا، بل بلغ من مكانته لدى المعتمد ان اصبح لا يفارقه بل يصحبه في حله وترحاله حتى في الحروب اذ نجده الى جانبه في وقعة الزلاقة المباركة، يتمم رسالته في السفارة بينه وبين يوسف، ويستوعب اسرار جيشه ودولته، ويكتب عنه بشائر النصر ورسائل الظفر.

ولم يترك ابن القصيرة بابا من أبواب العلم الا طرقه، فقد ادلى بدلوه في ميدان الشعر فابدع وأجاد في مدح المعتمد، وتخليد انتصاراته، كما خلد المتنبي انتصارات سيف الدولة الحمداني.

---

(1) البيان المغرب ج 4 ص 60

ودار الزمان دورته، وتكالبت النصرانية على الاسلام في الاندلس، وهددته بالزوال، وعجز ملوك الطوائف عن صد سيلها العارم، والوقوف في وجه تيارها الجارف، لا نغماسهم في الترف واللهو والمجون "ان الانسان ليطغى ان راه استغنى" ولتخاذلهم وتناحرهم...

في هذه الظروف الحرجة، قيض الله للاندلس منقذا، اذ توجهت الانظار الى أمير المرابطين في المغرب يوسف بن تاشفين الذي كان عند حسن الظن به، فتصدى لمحاربة قوات النصرانية والصليبية معا، واذاقهما مرارة الهزائم المتتالية، وما ان خذله ملوك الطوائف حتى استفتى فيهم علماء العالم الاسلامي الذين اجمعوا على الفتوى بعزلهم، فبادر للاطاحة بعروشهم الواهية الصورية، ووطد دعائم الاسلام في الاندلس اربعة قرون اخرى.

وما ان تمركزت دولته واستتب له الامر، حتى احاط نفسه بذوي الكفاءة من العلماء والادباء، وبحث بينهم عن شخصية جامعة مانعة يجعلها على رأسهم الى جانبه، فوقع اختياره على ابن القصيرة الذي فاق جميع معاصريه، وبزهم في جميع ميادين العلم والعرفان، من دينية وأدبية وسياسية، اذ كان مستوفي شروط الوزراء، بل زاد عليها.

وهكذا تسلق سلم المجد من جديد، وتسنم قمته بعد ان دحرجته الخطوب والاحداث حتى اسفله، وذلك حين تقلد وزارة وكتابة يوسف بن تاشفين حيث وجد مجالا أوسع لاظهار معارفه التي ربما كانت لا تتلاءم وروح عصر ملوك الطوائف.

ويتجلى لنا ذلك في تلك الرسائل والعهود التي كتبها عن يوسف بن تاشفين، والتي ابدع فيها وأجاد، لانطلاقه من ذاتيته، وصدق عاطفته التي نستشفها من كل رسائله بل من كل سطر منها وكل جملة فيها. فقد اطلق العنان لعواطفه وأفكاره، وسرعان ما تزاوجت وامتزجت فإذا به ينظم دررا، ويسيل قلمه عسلا فيه شفاء للناس.

وهكذا ظل أماما لأهل البلاغة وراس كتاب عصره، متسنما ذروة المجد، متربعا عرش الادب، الى ان استأثر الله به فلبى داعي ربه سنة 508هـ.

ولعل تلك المجهودات الجبارة التي بذلها طيلة حياته، وتلك المسؤوليات الجسيمة التي حمل عبئها عدة أجيال استنزفت طاقته الفكرية، وأصابت عقله بوهن لازمه حتى آخر رمق من حياته، فاقعده الفراش، ثم اسكنه القبر وادخله اللحد والرمس.

نثره في عهد الطوائف:

قبل ان ادلي بدلوى في هذا الموضوع، او اتطرق لدراسة هذه الرسائل وتحليلها بوضعها في ميزان النثر الادبي -احد شقي الادب الانشائي- والتعليق عليها، وقياسها بمقاييس النثر الفني لذلك العصر لارى مدى مطابقتها لمذاهبه او خروجها عنها، ومدى تقليده او تجديده... قبل كل هذا، ارى ان أسجل آراء بعض النقاد القدماء المتعلقة بنثره، والتي يمكن اعتبارها حجة في الموضوع لقرب عهدهم به، وكتابتهم عنه بعد قرن أو قرنين -على أبعد تقدير- من وفاته وفي وقت كانوا فيه بعيدين عن كل تأثير من شأنه ان يحيد بهم عن الحقيقة، أو يزج بهم في مواطن التزييف. فقد كانوا نزهاء الى أبعد حد، إذ لم يخضعوا في كتابتهم عن أدبائهم لاي ضغط أو تأثير، ولا لاية رغبة او رهبة، وإنما شأنهم في ذلك شأن النهضات الانسانية لجميع الشعوب في مشارق الارض ومغاربها، فهي تقوم أساسا على الاهتمام بالانسانيات القديمة واثارها كالنهضة الفرنسية في القرن السادس عشر، والعربية في التاسع عشر. وكان ذلك شأنهم في القرنين السادس والسابع، الذي جمع بين النهضة العلمية والادبية -التي بعثها في البلاد ذلك السيل المتدفق من العلماء والادباء والشعراء والكتاب والمؤلفين على مملكة غرناطة لبني الاحمر الخزرجيين، آخر معقل للاسلام والعروبة في تلك الجزيرة الشهيدة- وبين الانحطاط السياسي، الذي سببه اضطراب الحال، والحروب المتواصلة بين بني هود وبني الاحمر وبني مردنيش، واستعانة بعضهم على بعض بالمسيحيين المتربصين اولا، ثم بين بني الاحمر -بعد انفرادهم بالحكم- وبين النصارى.

فبينما انصرف ملوكهم للضرب والطعن وتجييش الجيوش واعداد العتاد، انصرفوا هم الى الدواة والقلم والقرطاس يدونون مفاخر الماضي وتراثه، ويترجمون للفطاحل من اعلامه، هروبا من واقعهم المظلم المدلهم، وتعويضا لنقص يستشعرونه في الميدانين السياسي والعسكري، وربما كان من أسباب اقبالهم على التاريخ لادبهم والترجمة لأدبائهم حاجتهم لإثبات شخصيتهم الادبية التي طمست معالمها شخصية المشرق، اي أنها كانت امتدادا لتلك الحملة التي بدأت زمن ملوك الطوائف كرد فعل لشعورهم بطغيان الاتجاهات المشرقية، وتسلط أدباء المشرق، وحاجتهم لابراز شخصيتهم، وإثبات ذاتيتهم والكف عن التبعية العلمية والادبية للمشرق، مما يطفو في كتابتهم ويطبع كتبهم، كما تردد صداه منذ عهد الطوائف بل وقبله، ونجد ارهاصات له في شعر الغزال، وابن حزم، وقصيدة ابن دراج

العامري، وخطبة منذر بن سعيد أمام الناصر في حفلة استقبال رسول ملك الروم بالقسطنطينية، معرضا بابى على القالى، كما وجدت بذوره منذ عهد المنصور بن أبي عامر ووفادة صاعد البغدادى عليه، اذ استقبل باعراض أهل العلم والادب عنه، وقدحهم في علمه وعقله ودينه، ولا نجد مبررا أو تعليلا لاعراضهم الا تلك المنافسة التي بدت في الاندلس لاهل المشرق، لا يقاف تيار الاقبال على كل قادم من الشرق، ووضع حد لاهمال رجال الاندلس، رغم ما وصلوا اليه من تبحر في العلم والعرفان.

ويمكننا ان نجزم بان هذه الافكار، وهذا القلق اخذ يساور الاندلسيين قبيل القرن الحادي عشر، فبداوا يعملون على الاطاحة بالاسباب المادية التي تعترض انتشار شعرهم ونثرهم، وتقديرهما الا وهي فقدان الدواوين والكتب لكتابهم وشعرائهم، فتصدت لتغطية وسد ذلك الفراغ ورتق ذلك الفتق جماعة من الكتاب والشعراء، وأخذوا على عاتقهم التعريف بادابهم وادبائهم، وانطلقوا بحماسة حزبية يصورون أغراضهم وآراءهم ومبادئهم بروح عنصرية، رغبة في الانتصار على علماء الشرق.

وهكذا ظهرت للوجود سلسلة من المؤلفات في نطاق حملة منظمة مقصودة، وفي إطار المحلية الاقليمية فالف ابو فرح الجياني كتاب (الحدائق) والف ابو الوليد اسماعيل ابن عامر الحميري كتاب (البديع في وصف الربيع)، ومما قاله فيه: "واما اشعار اهل المشرق فقد كثر الوقوف عليها، والنظر اليها... مع اني استغني عنها ولا احوج اليها بما أذكره للاندلسيين من النثر المبدع، والنظم المخترع، وأكثر ذلك لاهل عصرى، اذ لم تغب نوادرهم عن ذكرى "هكذا ترددت هذه الدعوى، وكثر انصارها وقوي حزبها الى ان جاء ابن بسام السنتريني المتوفي 542 هـ، والفتح بن خاقان، فتوجاها بتأليف الاول لكتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) والثاني (لقلائد العقيان).

ويقول المستشرف العلامة بيريس عن ابن بسام: "ولم يترك فرصة تمر دون ان يذكر تفوق الاندلسيين على المشارقة، ويشيد بنبوغهم، ويتغنى بآدابهم وفضلهم". [1]

وكذلك فعل شعراء هذا العصر إذ جمعوا اشعارهم خوف الضياع، وذكرى للاندلسيين، كالمعتضد والمعتمد وابن عمار وابن زيدون وابن خفاجة وابن حمديس، وغيرهم ممن عاصر ابن القصيرة، لانهم أرادوا السمو بشعرهم الى المقام اللائق به في عالم الادب.

(1) الادب الاندلسي ج 1 ص

والواقع ان الخصائص الكبرى للادب العربي واحدة في جميع الاقاليم، فالنمادج التي كونها في مختلف الاقاليم -ومنها الاندلس-، لا تختلف كثيرا عن التي كونها في المشرق، فالاندلس لم تبدأ نهضتها الادبية عموما والنثرية خصوصا الا في القرن الرابع مع العقد الفريد والامالي، ومن تم بدأت تشعر بشخصيتها وتحاول تصويرها في آثارها ونماذجها الادبية، لكنها لم تستحدث في تاريخ النثر مذهبا جديدا بل كانت تخلط بين المذاهب الثلاثة المشرقية دون تنسيق او تنظيم، ولا المام او تعميق. ورغم مكانة ابن القصيرة لم يستطع الخروج عن مذاهب الشرق ومناهجه بل قلدها شان غيره من ادباء عصره وسابقيهم ولاحقيهم. فقد ازدهرت الحياة الادبية عموما في عصر الطوائف وخاصة في ديار بني عباد بإشبيلية، فصارت الاندلس كايران في القرن الرابع الهجري التي كانت تعيش نفس ظروف الأندلس السياسية، وتعددت فيها مراكز النشاط الادبي حتى صارلكل مدينة في الاندلس كاتب كبير يحويه بلاط الامير، وكان ابن القصيرة على رأس كتاب عصره في بلاط العباديين، وكانت ابرز ظاهرة في نثر هذا العصر وبالتالي في نثره السجع، الذي ضرب فيه ابن برد الاصغر رقما قياسيا، اما ابن القصيرة وباقي معاصريه فلم يعقدوا نثرهم، لان حياتهم كانت تتهددها الفتن الداخلية من جهة، والحروب مع النصارى من جهة أخرى، فلم يتسن لهم التاني والتمهل للتلوين والتصنيع، ولم يطبعوا ادبهم بطابع التعقيد الا نادرا. غير أن آثارهم مهما تنوعت فهي ترجع لأصول مشرقية، سواء في تنسيق الموضوع، أو في عناصره، وليس للاندلسيين منها الا النموذج الذي يجمعها ويعطيها صورة ادبية معينة.

بعد هذه النبدة عن كثرة النقاد في القرنين السادس والسابع، والدوافع التي كانت تحفزهم، لم يبق لنا الا ان نتتبع آراءهم وأقوالهم وملاحظاتهم عن نثر أديبنا ابن القصيرة كمدخل لدراسة انتاجه وادبه.

لقد اجمع النقاد القدماء الذين تصدوا لنقده على براعته الفنية في نثره وعبروا عنها بشتى المعاني فهو عندهم: "راس اهل البلاغة في وقته... وكان من اهل الادب البارع" (1) وهو "غرة في جبين الملك، ودرة لا تصلح الا لذلك السلك، باهت به الايام وتاهت في وصفه الاقلام" (2) كما أنه "احد رجال الفصاحة، والحائز قصب السبق في البلاغة" (3) وهو كذلك: "تترجع الاقلام في بيانه وتتبجح الايام بمكانه" (4) وقال عنه ابن الصيرفي: "الناثر القائم

(1) الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام ج 2 ص 351
(2) قلائد العقيان ص 117
(3) المعجب في تلخيص اخبار المغرب ص 164
(4) فريدة القصر وجريدة العصر ج 3 ص 383

بعمود الكتابة والحامل للواء البلاغة، والسابق الذي لا يشق غباره، ولا تخمد ابدا أنواره، اجتمع له براعة النثر وجزالة النظم" [1] أما ابن عبد الملك فيقول: "وكان كاتبا مجيدا بارع الخط" [2]

ومن هؤلاء من تطرق للكلام عن اسلوب ابن القصيرة في كتابته، فاعطانا فكرة عن منهجه ومذهبه. يقول لسان الدين بن الخطيب عن كتابته: "وهي من قلة السجع والاخشوشان، بحيث لا يخفى غرضها، وهي مع ذلك تزينها السذاجة، وتشفع لها الغرابة [3] ويقول صاحب المعجب: "كان على طريقة قدماء الكتاب، من ايثار جزل الالفاظ وصحيح المعاني، من غير التفات الى الاسجاع التي احدثها متاخروا الكتاب اللهم الا ما جاء في رسائله من ذلك عفوا من غير استدعاء". [4]

والواقع ان هذه الاوصاف تنطبق على رسائله عن المعتمد اكثر مما تنطبق على رسائله عن يوسف، وقد اشار هو لذلك في قوله: "رايت له عن المعتمد رسائل تدل على ما وصفته به، ليس على خاطري منها شيء" [5]

والان، لم يبق الا ان نتتبع رسائله الديوانية او السلطانية التي كتبها عن المعتمد الى عماله وولاته وانداده من الملوك، ونختار أهمها لدراستها وتحليلها، واضعين اياها على محك نثر العصر لنرى مدى مطابقتها لمذاهبه ومناهجه الفنية او خروجها عنها، او مزجها بينهما متخذين من هذه الرسائل المهمة نموذجا لها جميعا، ومقياسا نقيس عليه سائرها.

رسائله الديوانية عن المعتمد:

ونجد لابن القصيرة جملة رسائل ديوانية او سلطانية عن المعتمد اوردها ابن بسام في كتابه (الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة) وهي:

1- رسالة موضوعها الاعلام بالانقلاب في قرطبة الذي دبره ابن عكاشة، صنيعة ابن ذي النون، وقتله لعباد بن المعتمد.

2- رسالة موضوعها التبشير بعودة قرطبة الى قبضته، وثأره لابنه عباد بقتل ابن عكاشة.

3- رسالة وجه نسخا عديدة منها لعمال الاقاليم يحثهم على جمع الاموال، للتعجيل بدفع الجزية لالفونسو.

(1) صورة مخطوط الاحاطة ص 64
(2) صورة مخطوط الاحاطة ص 64
(3) نفس المصدر
(4) المعجب في تلخيص اخبار المغرب ص 164
(5) نفس المصدر.

4- رسالة في نفس المعنى والموضوع، خاطب بها قواد البلاد، وزعت نسخها عليهم جميعا.

5- رسالتان موضوعهما التبشير بانتصار المسلمين في معركة الزلاقة الخالدة.

6- رسالة الى خليفة المعتصم بن صمادح، موضوعها وصف حصار حصن ليط.

7- رسالة موضوعها ذكر الاسباب التي حملت المعتمد على فتح مورسية، وكيف كان ذلك.

8- رسالة موضوعها وضع أهل غرناطة أمام مسؤولياتهم، وتحميلهم مغبة هجومه عليهم، وانتقامه منهم لغدرهم.

9- نتف من رسائل عديدة، اكتفى ابن بسام بايراد فقرات معينة منها قائلا: "وله من اخرى" مما يحول بيننا وبين الوصول الى موضوعها والغرض منها.

لكنني اقتصرت على دراسة اهمها من الناحيتين التاريخية والادبية، مرتبة حسب الاحداث التاريخية الا وهي:

رسالتان متشابهتان: موضوع الاولى: الاعلام بالانقلاب الذي دبره ابن عكاشة صنيعة ابن ذي النون في قرطبة، وقتله لعباد بن المعتمد، وموضوع الثانية: الاعلام بعودة قرطبة الى قبضته، وثاره لابنه عباد بقتل ابن عكاشة، وهما معا تصوران لنا احسن تصوير شريعة ذلك العصر المضطرب القريبة من شريعة الغاب، حيث يأكل القوى الضعيف، اذ الغلبة للاقوى، وحيث انتهكت جميع المقدسات، واستهين بجميع القوانين: الوضعية منها والسماوية...

وتليهما في التسلسل التاريخي رسالتان: خاطب باحداهما عمال الاقاليم، وبالاخرى قواد البلاد، وموضوعهما معا الاستعجال في قبض الاموال، للتعجيل بدفع الجزية لالفونسو. وفيهما تصوير لتلك الاوضاع السياسية المضطربة، والظروف الحرجة التي كانت تجتازها البلاد سياسيا واجتماعيا، ولتلك الحالة الاقتصادية المتدهورة التي كان يقاسيها ويعانيها العباد، وحياة الذل والهوان التي كانوا يتجرعون كؤوسها حتى الثمالة، وسيف العدو القاهر الغاصب المسلط على رأس الحاكم والمحكوم، والرعب الذي كان يقض مضجع الكبير والصغير...

ذلك انه لما اجتمعت كلمة الفونسو السادس ملك قشتالة، وسانشو الاول ملك ارجوان ونافارا، والكونت برنجار ريموند على سحق الدولة الاسلامية في الاندلس، نبذوا

خصوماتهم، وسددوا كل قواهم نحو المسلمين، فسقطت طليطلة اعظم معقل للدولة الاسلامية في الاندلس، ثم سرقسطة، وصحب ذلك مصائب وأهوال يشيب لها الولدان.

وكان المعتمد بن عباد ملك اشبيلية يتحمل اكبر تبعة في تلك النكبة التي حلت بالمسلمين بمساعدته الفونسو على حصار طليطلة، فكان من جملة من اكتوى بناره، اذ ارغمه على دفع الجزية عن يد وهو صاغر.

وبينما كان الفونسو يجمع الجزية او يتسلم حصون الحدود من ملوك الطوائف، كان ابن القصيرة يكتب للمعتمد رسائله الى عماله وقواده، يستحثهم على جمع المال من الشعب المسكين، ويستعجلكم في الاسراع بإرساله، وفي سنة مجدبة، غضبا وسخطا من السماء والارض.

أما المرحلة الاخيرة من ملك المعتمد فتصورها لنا ابرع تصوير رسالتان في موضوع واحد كتبهما عن المعتمد كاتبه ووزيره ابن القصيرة الى ولده الرشيد باشبيلية، يزف اليه فيهما بشرى انتصار المسلمين في معركة الزلاقة المشهورة والفاصلة في تاريخ الاسلام، -اذ مددت الوجود العربي الاسلامي بالاندلس، ومكنت للمسلمين فيها مدة اربعة قرون اخرى-. فابن القصيرة كتب رسالتين في الاعلام بالنصر العظيم والفتح المبين.

ولعل الاولى كانت على سبيل الاستعجال ولمجرد الاخبار، حتى تطمئن نفوس المسلمين المتطلعين باهتمام لاخبار القتال والمشرئبة اعناقهم لهفة لنتيجة تلك المعركة المصيرية الدائرة رحاها، والتي خاضوها يأموالهم وانفسهم، والقوا فيها بكل امكانياتهم، وأصبحت ملتقى امالهم ومحط رجائهم. اما الثانية ففيها تفصيل للحوادث، وتبويب للاحداث، ووصف للمعارك والمواقع، وتحليلات واستنتاجات ليست وليدة لحظة النصر، وإنما هي بنت التامل والتدبير الهادئ، والارتياح الذي يغمر النفس بعد ان تنعشها نشوة النصر.

والذي يزيد في أهميتهما ان كاتبهما كان شاهد عيان للمعركة، واحد اقطابها، فهو قد خاض غمارها سياسيا، وكان من جملة الفقهاء الداعين لها والمحرضين عليها. فما أكثر ما تردد في السفارة بين المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين، مما يدل على الثقة الغالية التي كان يحظى بها لدى الطرفين، وعلى براعته السياسية التي يؤكدها نجاح مسعاه. فقد "سفر ذو الوزارتين بينهما مرارا فكثر صوابه واشتهر في ذات الله مجيئه وذهابه" .[1]

---

(1) م. الذخيرة ج 2 ص 99

وما ان انتهى الجانب السياسي وجد الجد، وحمي وطيس المعركة، واشتعل لهيب المعمعة واوارها حتى وجدنا ابن القصيرة في ركب الجبهة المتحدة، لثقة طرفيها المغربي والاندلسي فيه، والاعتماد عليه عند الحاجة الى رسول امين في امر خطير، أو الى كاتب بارع يسجل المواقف الفذة ويخلد البطولات النادرة، أو الى سفير ماهر حنكته التجارب، وعركته الحياة، وعجمت عوده السنون، فخبر احوال الدولة وشؤون الملك.

فما ان غدر الفونسو -وهاجم جيش الاندلس يوم الجمعة بدل الاثنين المحدد للحرب-، حتى بعث ابن عباد كاتبه ابن القصيرة الى يوسف يعلمه بإقبال ابن فرذلند، ويستحث نصرته. فمضى ابن القصيرة يطوى المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين، فعرفه بجلية الامر، ... وانصرف ابن القصيرة الى المعتمد، فلم يصله الا وقد غشيه جنود ابن فرذلند.[1]

ويهمنا الان ان نعرف القالب الذي افرغ فيه ابن القصيرة رسائله، والمنوال الذي نسج عليه أفكاره وخواطره فيها، والشكل العام الذي ارتضاه لها...

والواقع ان رسائله من حيث شكلها، تذكرنا برسائل صدر الاسلام، واوائل الدولة الاموية قبل مجيء عبد الحميد الكاتب الذي طول واسهب في الرسائل الديوانية او السلطانية، -اقتداء بالفرس وغيرهم من الدول الاجنبية-، فهي موجزة، تؤدي الغرض المقصود منها دون ما مقدمات او تمهيد للاستهلال، بل يلج الموضوع مباشرة ومن اقصر السبل، وسرعان ما يتخلص منه وقد ادى غرضه باختصار وايجاز.

ولمعرفة النظام الذي اتبعه ابن القصيرة في رسائله، لا مناص لنا من ان نتتبع رسائله التي نحن بصدد دراستها ممهدين لكل منها بتوطئة تاريخية، محاولين استخراج عناصرها الرئيسية، متبعين فيها نفس التسلسل التاريخي لها.

فقد كان المعتمد بن عباد، اتبع سياسة ابيه المعتضد في القضاء على الامراء الضعاف، وضرب بعضهم ببعض، والاستيلاء على ممتلكاتهم ومن جملتهم ابن جهور الذي انتزع منه قرطبة على سبيل الغدر والخيانة، وولى عليها ولده عباد الذي كانت له مناوشات مع ابن ذي النون انتصر عليه فيها، فرماه ابن ذي النون بابن عكاشة، وجعله باحد الحصون القريبة من قرطبة لاخافة سبلها.

---

(1) البيان المغرب ج 4 ص 137

وكان داهية صارم القلب نافد الرأي، في حين كان ابن مرتين وزير عباد بن المعتمد، منغمسا في فجوره وطغيانه، منصرفا عن تدبير الامور الى مجالس اللهو والمجون. فسرعان مادبر ابن عكاشة انقلابا في قرطبة، وهاجمها تحت جنح الظلام سنة 467هـ، ففاجأ عباد بن المعتمد وقتله، وفر ابن مرتين. لكن سرعان ما قبض عليه والحق بصاحبه، وارغم أهل قرطبة على مبايعة ابن ذي النون الذي التحق بقرطبة لحينه محققا اغلى أمانيه، وكان هذا موضوع رسالة لابن القصيرة عن المعتمد.

وقد افتتح هذه الرسالة باستعظام النازلة التي حاقت بقرطبة "كتبت على إثر النازل الشنيع، والرزء الفظيع الذي صدع كبدي.. ثم يدعو على قاتليه" "وقتل قاتليه" [1] وهي سنة كتاب ذلك العصر الذين يسبون الاعداء من النصارى أو غيرهم دون تمييز لهويتهم او نوعيتهم.

وينتقل لموضوع الرسالة الرئيسي الا وهو استيلاء ابن ذي النون على قرطبة، وقتل أميرها عباد بن المعتمد "طلب الغرة في قرطبة فأصابها... فثبت لها مدافعا عن نفسه حتى افيضت" [2] وفيه ينحى باللائمة على الجار الغادر ابن ذي النون الذي اخذ قرطبة على غرة ورغم أهلها بواسطة صنيعه الوضيع ابن عكاشة. ويختمها بالدعاء راجيا الله ان يقطع امل اعدائه في التوسع على حسابه. "والرب لبغيه بالمرصاد والقاطع لامله في الانبساط والازديـــاد" [3] وكاني به قدى نسي غدره هو بابن جهور في امسه القريب، وما كان من بغيه عليه وظلمه اياه، وانتهاك حرماته...

لكن سرعان ما تضايق ابن ذي النون من تصرفات ابن عكاشة، وصار يعمل على اقصائه. وتفطن ابن عكاشة لتغييره عليه فلم يمهله غير شهر من دخوله قرطبة حتى دس له السم وقتله. وخلا الجو للمعتمد فأخذ بثار ابنه عباد بقتله لابن عكاشة، واسترد قرطبة لحظيرة حكمه. فكتب عنه ابن القصيرة رسالة في هذا الموضوع، نهج فيها نفس النهج في رسالته السالفة، فهو يتناول الموضوع راسا "وانفذته عندما عادت الحضرة الى يدي" فيعلن عن استعادته قرطبة بسهولة "على صورة من التيسير" [4] لولاء أهلها الا القليل من جهالها وسفهائها الطامعين، وان دخوله لها كان برغبة أهلها ومساعدتهم "وثار أهلها معي داعين بشعاري... يكسرون بين يدي كل غلق" [5] مما عجل بفرار الاعداء، وقتل زعيمهم ابن عكاشة الذي كان يفضل اسره على قتله حتى يعذبه اخذا بثار ولده، وشفاء لقلبه. "واتى على اخرهم... سيف الى راس ابن عكاشة": [6]

(1) مخطوط الذخيرة ص:109
(2) المصدر السابق والصفحة
(3) مخطوط الذخيرة ص: 110
(4) المصدر السابق، ص:111.
(5) المصدر السابق، ص:112
(6) المصدر السابق، ص: 114

ولم يحد عن طريقته في باقي رسائله، فنجده في الرسالتين اللتين ارسل نماذج لهما الى عماله وقواده يحظهم على جمع الاموال من الشعب لدفع الجزية، -وفي سنة قحط وجفاف وغلاء، عم فيها البلاء والوباء والجراد-، فشخصت الابصار وخشعت القلوب، وارتفعت اكف الضراعة الى السماء، تستجدي الرحمة والرضوان. كان ذلك سنة 478 هـ، بعد سقوط طليطلة، حتى قال احد الشعراء:

حثوا رواحلكم يا أهل اندلس	فما المقام بها الا من الغلط
فالثوب ينسل من أطرافه وارى	ثوب الجزيرة مسلولا من الوسط

فهو فيهما يبدأ بالغرض الرئيسي "الحال مع العدو قصمه الله بينة لا تخفى "مشيرا لسوء تطور علاقته مع العدو واستفحال امره. ثم يقرر ان الحل الوحيد معه هو مداراته وملاينته -ممهدا لذكر نوع هذه الملاينة- "ومداراته مالم تكن مضاهاته اولى واجدى" [1]

ويعلن ان عقد الصلح نص على ان ندفع له الجزية "فوقع الاتفاق معه على جملة من المال تقدم اليه" [2] شارحا الكيفية التي ستؤخذ بها هذه الجزية في الاقاليم ونواحيها، ذاكرا المقدار الذي كان من نصيب اقليم ذلك العامل، وناحية ذلك القائد، وأخيرا يحث على الاسراع بارسال الاموال التي لا مفر من ادائها "فعجل النظر فيه وابعثه" "وفي اعجل ما يمكن فالحاجة اليه وكيدة" (3) مع فارق بسيط، كالتذكير -في رسالة العمال- بما كان ينتظر البلاد لولا تلك الهدنة، وترك الحرية في ان يدفع كل فرد حسب طاقته، وأمر القواد بحسن شرح الظروف للرعية تخفيفا لا لامها. وربما كان هذا الفارق فارقا في معاملة أهل المدن وأهل القرى.

وحتى في الرسالتين اللتين كتبهما من احواز بطليوس، ومن قلب معركة الزلاقة، اتبع نفس الخطة، فبعد التاريخ للرسالة، يلج صلب الموضوع -كما يتبع في الرسائل الرسمية لعصرنا هذا- وهو التبشير بالنصر- ذلك ان الفرحة قد استولت عليه وملكت عليه مشاعره، فازدحمت الافكار في ذهنه، وتزاحمت المعاني في تسابق الى بؤرة الشعور منه تريد ان تكون لها الاسبقية في الوصول الى قلمه، وبالتالي الى قرطاسة، ثم الى الناس اجمعين، وسرعان ما قفزت العبارة الجامعة المانعة في تلك الجملة الحالية "وقد اعز الله الدين واظهر المسلمين".

---

(1) مخطوط الذخيرة ص 105 (2) المصدر السابق والصفحة (3) المصدر السابق والصفحة

وهكذا ضرب عرض الحائط بكل أنواع المقدمات، ليطلق العنان لعواطفه الجياشة وينقل شعوره الى غيره من ملايين االمسلمين لمنتظرين المترقبين...

وبعد ذلك صار يعدد أنواع الهزيمة التي لحقت العدو، من قتل أكابر رجاله، وانتهاب محلاته، ثم عمد لذكر ما يدعو للاعجاب ويحفز للفخر والتباهي كل مسلم، من فرار النصارى، وتتبع المسلمين لهم بغية استئصالهم. ثم يؤكد ان أغلبيتهم الساحقة لاقت حتفها او هامت على وجهها لتموت جوعا وضياعا. وأخيرا يطمئن ولد المعتمد الرشيد ورعيته بسلامته، وأنه لم يصب الا بجرح طفيف. ويختم بحمد الله على نعمة النصر، مستزيدا منه.

ورغم كون الرسالة الثانية في نفس الموضوع، الا انها اوفى من سابقتها، اذ أنها تفصل تفصيلا، وتعلل تعليلا، وتتناول مراحل المعركة منذ الاستعداد لها، وتشير لعدة خفايا لا يمكن اجلاؤها الا بالرجوع لكتب التاريخ في الموضوع، ويمكن اجمال عناصرها الرئيسية في:

1- ان تطاول الفونسو هو الذي الهم المعتمد الاستصراخ بيوسف.

2- يشير من طرف خفي لشرط يوسف اخلاء الجزيرة الخضراء "ناي دياره وشحط مزاره"

3- ما بدله المعتمد من مساعي لاتمام ذلك كمساعدته ليوسف باسطوله لاسترجاع سبتة وطنجة من يد ال سكوت البرغواطي" [1] "وانا انجده بوسعي واسعده على حسب ما يطيقه درعي".

4- ثم حسن استقباله له بالاندلس

5- وما كان من اخذ ورد في اختيار مكان المعركة

6- ثم انتقل لوصف العدو وموقفه وعدده وعدته، مشيرا لجبنه الذي يغطيه بالحديد اذ "تحصنوا به من قرونهم الى اقدامهم".

7- وما ابرعه في تصوير اتقان المسلمين للكر، ولوذ النصارى بالفرار "واظللنا عليه براياتنا حتى كدنا نركزها بفنائه".

8- ولم يفته ان يخط على لوحته الرائعة للمعركة حتى ابسط جزئياتها وجوانبها من استهلال المسلمين هجومهم بالتكبير "فتنادى المسلمون بشعارهم المنصور".

(1) الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ج 2 ص 30 و 31.

9- وبلطخة واحدة من ريشته شخص وجسم لنا اللحظة الحاسمة في المعركة، حيث تبودل الكر والفر، والاقبال والادبار بين المعسكرين: "فتواقف قليلا الجمعان وتجادل مليا الفريقان وللسيوف حكمها ومن الحتوف صدها المفهوم ورسمها".

وهنا لم يترك لنا اي مجال للشك حيث أعلن بوضوح ان فضل الانتصار يرجع لامير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين لا للمعتمد بن عباد، مما ذهب اليه بعض المؤرخين المغرضين الذين يلبسون الحق بالباطل ويزيفون الحقائق لغرض في نفس يعقوب، وذلك في قوله: "ثم صدق أمير المسلمين وناصر الدين الحملة" وانها لعمري لشهادة من اكبر شاهد، فالرسالة عن المعتمد، وبيد كاتبه ووزيره الحاضر في المعركة شخصيا.

10- كما صور هزيمة الاعداء احسن تصوير وابرعه مكتفيا بما قل ودل "اما محلتهم فانتهبت لاول وهلة وشربت في نهلة".

11- وبشر المسلمين بالمغرب والاندلس بقلة عدد الشهداء "ولم يصب بحمد الله من المسلمين... كثير ولإمات من اعلامهم... الا عدد يسير".

12- وأخيرا يعتذر عن عدم قتل الفونسو الذي سيموت لا محالة غما وكمدا من جراء هزيمته النكراء، التي سجلها التاريخ بمداد الخزى والعار.

13- وختم بشكر الله على انعامه بذلك النصر العزيز والفتح المبين.

وإذا نحن تصدينا لدراسة وتمحيص هذه الرسائل الديوانية، التي اتخذنا منها نموذجا لنثره زمن الطوائف، وحاولنا اخضاعها للقوالب النثرية في ذلك العصر، باحثين عن منهجيته فيها ومذاهبه، فسنجد انه كسائر معاصريه وسابقيه ولاحقيه من كتاب الاندلس الذين لم يستحدثوا مذهبا جديدا في تاريخ النثر العربي يمكن اضافته للمذاهب الثلاثة التي كونها النثر في المشرق. لذا نجده في رسائله هذه تارة يكتب على ذوق اصحاب الصنعة، وطورا يعدل الى نمط اصحاب التصنيع، وأخرى يقتدى باصحاب التصنع، فهو تارة يسجع "النازل الشنيع والرزء الفظيع" وأخرى يتحلل منه، اي انه لم يخضع لمذهب معين من مذاهب المشرق، بل يتقلب بين المذاهب والمناهج المختلفة، وإذا كان يسجع فهو لا يستخدم البديع، الشق الثاني لمذهب التصنيع الا نادرا، مما يدلنا على عدم تمكنه من الالمام بالمذهب واسراره كما وضعه اصحابه، كما نجده يخرج احيانا الى مذهب التصنع. -الا انه نادرا ما يفعل- وذلك حين يستخدم الغريب "اكبابه واليابه" ويكثر من التهويلات والمبالغات "الرزء الفظيع الذي صدع كبدي" بينما يبتعد عن تعقيدات وزخارف البديع عند اصحاب التصنيع، رغم

قرب ذوقه من ذوقهم، وهكذا يمكننا ان نجزم بأنه قلد مذاهب الشرق ومناهجه في غير نظام ولا نسق معين، فهو يسجع تلقائيا وعفويا دون التزام ولا تعمد أو تصنع "فلم يلبث اعداء الله ان ولو الادبار واستصرخوا الفرار"، وياتي بالشق الثاني لمذهب التصنيع "انا لم نجد لدائه دواء وقتلهم في كل غور ونجد" كما نجد عنده روح المبالغة والتهويل في "اما محلاتهم فانتهبت في اول وهلة وشربت بأسرها في نهلة" وفي "جيوش تملأ الفضاء وتسد الهواء" و "من قرونهم الى اقدامهم" اما تشخيصه فما اكثره وما اروعه في رسائله، حتى انه ليعطينا صورا شاهدة له بالبراعة في الانشاء والبلاغة، وخضوع اللغة لخياله وطاعة المعاني وانسياق الالفاظ لقلمه وبنانه، يدعوها فتجيب، ويأمرها فتطيع، فجاء سجعه عفوي دون التزام، ومعانيه قوية. أما اسلوب رسائله فرفيع، ومعناها حصيف، والفاظها متينة بعيدة عن الحشو والاغراب والتنميق والتزييف -مما عرف في الاندلس خلال القرنين السادس والسابع، بعد ان دشنه في المشرق ابن العميد الذي جعل من الكتابة معملا لصناعة السجاد، ومعرضا للصور والرسوم -التي كان شغوفا بها كل الشغف- لولا ما فيها من روح عصره الا وهي روح المزج بين مذاهب المشرق، مع ميل الى التصنيع في مثل "بينة لا تخفى" ومداراته ما لم تمكن مضاهاته" و "تعجيل وتأخير" ويتجاوز فهو يجمع فيها بين الصنعة والتصنيع في غير افراط ولا تفريط، اذ لا يسرف في البديع، ويجانف كل ما يتعلق بالتصنع الذي جر الكتابة الى الحضيض اما الجديد في رسائله فهو روح المقامة او الروح القصصية التي نستشفها من سطورها، وكان ابن القصيرة تأثر بمقامات الحريري بالمشرق، اذ نجد عنده احيانا لزوم مالا يلزم في "منحرف عن الملة منصرف عن الخير بالجملة" كما يلفت نظرنا في رسائله، براعته في فن الوصف، فكما برع شعراء الاندلس وكتابها في وصف الطبيعة وجمالها في العصور السابقة، برع ادباء هذه الفترة الدامية -وعلى راسهم ابن القصيرة-، في وصف المعارك والحروب، واعطوا موهبة خارقة في ايجاز ذلك لكثرة ما الم بهم من حوادث واحداث، شحذت موهبتهم وزودتهم بقدرة خارقة على وصفها، انطلاقا من صدق معاناتهم لها، وصدق عاطفتهم نحوها، فصدقوا بالتالي في وصفها.

والواقع انني كلما امعنت النظر والغوص في رسائله، -قصد تحليلها-، كلما ازددت اعجابا به وبادبه. فهي في جملتها عبارة عن ما نسميه اليوم بالقصة القصيرة المستوحاة من الواقع. اشخاصها قواد واقعيون، وفيها وحدة الزمان والمكان مما يمكننا ان نطلق عليه

تجاوزا المقامة الحربية الواقعية، بل انها لتشكل في مجموعها ملاحم نثرية، لا يعوزها الا عنصر الخيال والتهويل والمبالغة، مما نجده، عند سائر كتاب هذا العصر، الا ابن القصيرة الذي نجد في اسلوبه -بدل ذلك- سلاسة ووضوحا، وترادفا واستطرادا يذكرنا احيانا بأسلوب الجاحظ، وخاصة في ردوده على الشعوبية، مما نجده في البيان والتبيين. واذا كان معجبا بالجاحظ وقلده في استطراده وترادفه، فقد ابتعد عن اطنابه واستقصائه وتلوينه الصوتي والعقلي.

غير أنني بقدر ما أعجبت بصدق عاطفته وتلوين اسلوبه، -مما كان سببا رئيسيا لما حققه من روعة في رسائله-، بقدر ما استات من كلمات الشتم الصريح البذئ، الذي تكرر في جل رسائله، بل ربما تكرر مرات في بعض رسائله مثل: "الحال مع العدو قصمه الله" "فل الله حده وفض جنده" فما احرانا ان نفاخر اعداءنا، ونقارعهم بالسيف والسنان، والقوة والعتاد، لا بالسب والشتم الصريحين -سلاح العاجزين- ومن يدري فربما كان الشعور بالعجز أمام الاعداء -اذ ذاك-، اوحى لهم بهذه السنة الذميمة، فأباحوا لانفسهم سب الاعداء، حتى في كتاباتهم الادبية، عملا بما يسمى في علم النفس التعويض او الاسقاط.

وهذه الرسائل يمكن اعتبارها وثائق تاريخية قيمة، فهي تلقي لنا أضواء كاشفة لحقائق طالما تضاربت فيها اراء الباحثين والمؤرخين، بل انها اذا رتبت حسب التسلسل التاريخي لها، اعطتنا تاريخ تلك الفترة صادقا ناصعا. فهي مثلا لا تترك اي مجال للشك في نوايا يوسف بن تاشفين الحسنة نحو ملوك الطوائف، وخاصة المعتمد، الذي يثني عليه في رسائله، ويمدحه، ويعزو اليه فضل النصر" ثم صدق امير المسلمين وناصر الدين ايده الله الحملة... فلم يلبث اعداء الله ان ولوا الادبار واستصرخوا الفرار" مما يدحض ترهات بعض المؤرخين، الذين يطيب لهم ارجاع فضل النصر الى المعتمد.

وانني لاجد اسلوب ابن القصيرة فريدا من نوعه، فرغم معاصرته للحريري بالشرق -الذي انساق مع ما سنه ابو العلاء من تركيب وتعقيد-، وخاصة في كتابه الفصول والغايات الذي اتهم بانه عارض به القرآن الكريم- فابعد هو في ذلك حتى بني رسائله على حرف واحد كالرسالة السينية والشينية، مما جعل كتابته اشبه ما تكون بعمل عمال المطابع، في تصفيف الحروف الخالية من كل شعور او احساس، وكتب مقاماته في ظلال مذهب التصنع وعقده، لا في نطاق مذهب التصنيع وزخرفه، بل انه اوغل في ذلك حتى جاء بما لا يستحيل بالانعكاس، ونسج عليه بالكنايات والامثال والمسائل النحوية والفقهية، مما كان يعتبر مقياسا ومعيارا لمقدرة الكاتب في ذلك العصر.

قلت رغم هذه المعاصرة للحريري، نجد ان الفرق بينهما او بين اسلوبيهما كبير والبون شاسع، مما يكاد يطعن فيما درجنا على اعتقاده من اعتبار الاندلسيين مقلدين للمشرق، لولا اننا نجد ابن زيدون المعاصر له يقتفي اثر مذاهب الشرق وينسج على منوالها، ويتخذها مثلا اعلى ونموذجا يحتذى.

فنحن نفتقد في أسلوب ابن القصيرة ما عرف عن معاصريه من كتاب الاندلس -وعلى رأسهم ابن زيدون- من العناية بحل الشعر وتركيبه، وإيراد الحكم والامثال وحشدها، مما يقربهم الى اصحاب التصنع من استخدام لغة مبهمة، وذكر الكثير من وقائع القرآن الكريم وحوادث التاريخ الاسلامي، وتضمين الشعر ونثره، والاقتباس من آيات الذكر الحكيم، واستعمال المصطحات العلمية. وهذا ان دلنا على شيء، فانما يدل على سلامة ذوقه، ونباهة حسه، وانه استطاع ان يضفي على انتاجه من روحه، ويطبعه بطابعه الخاص، الا وهو طابع الاباء الذي تنطق به كل رسالة من رسائله، وطابع الانطلاق من ذاتيته دون تصنع او تكلف او تقليد.

كل ما سلف، يؤكد لنا ان ابن القصيرة كان وحيد زمانه في حياته كلها، سواء السياسية منها او الادبية، ولا غرو فهو صلة بين عصرين متناقضين، ساهم في سياستهما وادبهما بقدر وافر فهو مخضرم -ان صح التعبير-، وقد استطاع ان يجمع بين مزايا العصرين، ويتجنب مساوئهما، فكان يمثلهما احسن تمثيل، سواء في اخلاقه المثالية ونفسه العالية، او في ثقافته الواسعة الشاملة، او في ادبه الاصيل المتين -شعرا ونثرا-، اوفي كل انتاجه الذي يشهد له بالتضلع في فنون اللغة، والتبحر في صنوف العلم والعرفان.

نثره في عهد المرابطين:

لقد ايقن يوسف بن تاشفين -بعد معركة الزلاقة- ان امراء الطوائف لا يعول عليهم، وانه عليه ان يطلع بالعبء وحده، وامن أهل الاندلس ان انقاذ البلاد، لن يكون الا على يديه للاصلاح الاجتماعي الذي كان يسير في ركبه واعقاب جيشه، من الغاء للضرائب الجائرة، ونشر للمساواة المطلقة...

وطار خبر النصر فاحتفل به في المشرق والمغرب، وشبهه المؤرخون بالقادسية واليرموك. وهنا الامام الغزالي يوسف وشد اليه الرحال حتى وصل الاسكندرية، -حيث علم بموته- فقفل راجعا. [1] ورفع النصر من معنويات الاندلسيين، فايقنوا ان العدو لا يمكن ان

(1) قيام دولة المرابطين ص 284

يقهر الا بالاتحاد، وفت في عضد المعسكر النصراني فاحس انه امام جبهة متحدة، تقف له بالمرصاد، وتنتزع منه ما سلبه. كما اخذ المعسكر الصليبي يستعد لمعركة اخرى.

وكان المعتمد آخر من اطيح بعرشه من ملوك الطوائف، فاستولى يوسف على بلاد الاندلس، ووحد الجبهة الاسلامية تحت قيادته، ثم تقدم لقتال الفونسو -المتقدم لاعانة المعتمد-، فنشبت معركة ضارية بين الفريقين بقيادة الامير ابراهيم بن اسحاق اللمتوني والبرهانس، اوقع فيها المرابطون بالقشتاليين، وبذلك انتصر المرابطون على الطوائف والقشتاليين معا.

وما ان استتب الامر ليوسف بالاندلس حتى صان حضارتها، وبسط ظله وحمايته على علمائها، واصلح احوالها الاقتصادية والاجتماعية، فعم الامن والرخاء، وامتزجت حضارة المغرب بحضارة الاندلس، فنتج تكامل بينهما، وتألق نجم الفن والثقافة فيهما، وتبودلت الرحلة بينهما "ولم يزل امير المسلمين من اول إمرته يستدعي اعيان الكتاب من الاندلس حتى اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك" [1] وذكرت كتب الطبقات من ائمة هؤلاء الكتاب الاعلام، والادباء الثقاة: ابا بكر محمد بن سليمان الكلاعي المعروف بابن القصيرة. [2] فهل يقال بعد هذا ان المرابطين حاربوا العلم، وكانوا اعداء حرية الرأي؟

الواقع انه كان فيهم استعداد لتقبل كل ذلك، فهم قبائل بناء لا هدم، وقبيلتهم ذات حضارة قديمة، فما ان فتحوا الاندلس حتى اقبلوا على حضارتها وعلمها بنفوس راضية وقلوب واعية، وسرعان ما اصبحت الخطوط الرئيسية لحركتهم الادبية هي نفسها في المشرق، سواء من حيث الموضوعات الادبية، او من حيث الاوزان العروضية، او البواعث النفسية. فكل ما وجد في الشرق، نجد له صدى عند ادباء هذا العصر -كالذي سبقه- الا أننا نجد خيوطا رفيعة يتجلى فيها أثر الاندلس بل أثر المغرب، بينما لم يتأثر المرابطون بالاسبانيين الا قليلا جدا -شأن جميع العصور السابقة- في حين تأثروا كثيرا بالشرق، لوحدة الدين واللغة وجميع المقومات الاخرى، وكان شأن الادب، شأن بقية فروع المعرفة، ولا غرابة في ذلك، فما الاندلس بالنسبة للشرق الا كالخلية بالنسبة للجسم، او الكواكب التابعة بالنسبة للمتبوعة، فهي تابعة لها تدور في فلكها بحكم قانون التبعية وناموس الطبيعة الجبارة.

---

(1) قيام دولة المرابطين ص 528

(2) قيام دولة المرابطين ص 434.

ولنقف مع كاتبنا ابن القصيرة، لنرى ماذا كان مآله بعد هذه التقلبات السياسية التي عرفتها البلاد.

فما ان اقلعت سفن يوسف بن تاشفين بالمعتمد صوب المغرب ثم اغمات، -مؤذنة بانتهاء التفرقة والمنازعات-، حتى هام ابن القصيرة على وجهه، فارا بنفسه "فكان احد من هرب وفي جملة من نكب" [1] وظل بعيدا عن الدولة الجديدة مدة ثلاث سنوات، اتخذها فرصة لاختبار هذه الدولة الناشئة، وعجم عود سياستها الداخلية والخارجية، فتأكد أنها قائمة على هدى من الله ورضوانا وان اهم مبادئها جهاد من حاد عن الجادة وزاغ عن الشريعة، وانها شديدة العزم، صارمة الضرب على ايدي الخارجين والمارقين عن حدود الدين الحنيف. وزاده اطمئنانا اليها قولة يوسف المشهورة التي تعتبر دستور جهاده في الاندلس: "انما كان غرضنا من ملك هذه الجزيرة ان نستنقذها من ايدي الروم" .. [2]

افبعد هذه الدرر الغالية، وهذا الايمان الصادق، وهذه النفس الكريمة الطموحة المتوثبة، وهذا القلب الشجاع النابض بالعزة والكرامة والغيرة الاسلامية، يمكننا ان نصدق ما قيل عن هذا الرائد العظيم، وما نسب اليه من جهل وجلف، وغلظة وفضاضة وغيرها من النقائص التي وصفه بها بعض النقاد من غلاة المستشرقين المغرضين، وعلى رأسهم دوزي، [3] او المشارقة كاحمد امين الذي قال عنه: "ولكنه بدوي جلف لا يفهم كثيرا معنى الانسانية... ثم عاد الى الاندلس ببربره الاجلاف، وازال ملوك الطوائف ومن بينهم المعتمد" [4] وكغيره ممن عاصر عهد النهضة الحديثة -الذي عرف الرعيل الاول من ابناء العروبة والاسلام الذين اتصلوا بالثقافات الغربية، ورضعوا البانها اما مباشرة من مواطنها الاصلية، او بواسطة المستشرقين وكتاباتهم المسمومة المدسوسة...

وما ان تأكد ابن القصيرة من حسن نية يوسف، وسلامة طويته، وصلاحية دولته، ومدى الخدمات الجليلة التي قدمها للاسلام حتى نزل عن رغبته في ان يستكتبه، ودخل في طاعته، وانضوى تحت لوائه، وصار من اصفى خواصه وناصحيه، فاستوزره واستكتبه، فاخلص في الوزارة، وأجاد في الكتابة، ونظم الدواوين احسن نظام، فصار له بمثابة ظله، لا يفارقه في الحال والترحال "دخل غرناطة غير ما مرة وحده او في ركاب أميره " اذ وجد كل منهما في صاحبه ضالته المنشودة. ذلك ان ابن القصيرة فقيه ورع، وما احب الفقهاء الى يوسف واقربهم الى قلبه! فهو ملك عادل نزيه، يحبذ ان يحيط نفسه بأمثال ابن القصيرة، ويجعل منهم حاشيته وبطانته.

---

(1) مخطوط الذخيرة ج 2 ص 100
(2) قيام دولة المرابطين ص 268
(3) الادب الاندلسي ص 70
(4) ظهر الاسلام ج 3 ص 130

وقد انعكس التغيير الشامل للحياة في الاندلس آنذاك على ادب ابن القصيرة، فارتدت رسائله عن يوسف حلة قشيبة من الوقار طبعتها بطابع الدولة الديني، فكثرت فيها الالفاظ الاسلامية، وسرت فيها روح دينية جعلت لها هيبة وقيمة. فلغتها ليست لغة المستجدى للمال او المستنجد او المعتذر -شأن جل رسائل المعتمد-، بل هي لغة المسيطر، المؤمن بنفسه وربه وأمته، الواعي بمسؤولياته، المخطط لأهدافه، الواثق من نفسه، المطمئن الى رعيته.

وإذا كنا قد اشرنا الى براعة ابن القصيرة التصويرية، وتمسكه بالواقعية، فنحب أن نشير الان الى ان براعته ومقدرته التصويرية هي التي جعلت نفسية المعتمد واحداث عصره تنعكس على رسائله عنه، كما عكست رسائله عن يوسف بن تاشفين نفسية ذلك الملك العظيم الذي قل ما جاد الدهر بأمثاله.

ولا يفوتني هنا ان أشير الى سبب آخر لذلك التطور الذي طرأ على أسلوب ابن القصيرة الا وهو عامل السن. فقد بلغ كاتبنا اشده، وحنكته التجارب القاسية التي اجتازها في عصر ملوك الطوائف وبعده، وتخرج من بلاط أمير لا كالامراء فهو اديب كبير، وشاعر مجيد. وقد برزت في أسلوبه حنكته السياسية التي اكتسبها من قيامه بمهمة السفارة للمعتمد، وتردده بينه وبين الامراء والملوك. كما هذبت اسلوبه والفاظه تلك الفترة الانتقالية من حياته التي قضاها في التشرد والضياع، والتربص والترقب وقاسى خلالها الامرين من الضعة والهوان المادي والمعنوي "وأقام على تلك الحال نحوا من ثلاثة أحوال حتى تذكره امير المسلمين بمكان محمد بن حسين خليفته". [1]

وباختصار فإن رسائل ابن القصيرة [2] عن يوسف بن تاشفين، تختلف كل الاختلاف عن رسائله عن عهد المعتمد، فهي تصور عصره الزاهي، ودولته العظيمة احسن تصوير وادقه اذ ليس فيها لف ولا دوران، ولا تحيل للمعاني والالفاظ...

رسائله الديوانية:

وقد وصلتنا من رسائله الديوانية عن يوسف بن تاشفين ثلاث رسائل يمكن اتخاذها كنموذج لها جميعا وهي:

1- رسالة الى طائفة متعدية، يهددها ويتوعدها وينذرها مغبة امرها، ويضعها أمام مسؤولياتها.

(1) مخطوط الذخيرة ج 2 ص 100

(2) جريدة القصر ج 3 ص 384 وقلائد العقيان ص 117.

2- رسالة الى صاحب قلعة حماد يدحض حججه وينعى عليه تقريب العرب والانعام عليهم.

3- رسالة الى أهل مكناسة، موضوعها نصحهم وارشادهم، ودعوتهم للاتحاد والتآزر، وتهديد المشاغبين منهم بالنفي.

ففي هذه الرسائل نلاحظ تغييرا جذريا في اسلوب الكاتب، وتطورا كاد يكون شاملا، فبعد ان كانت رسائله عن المعتمد تجمع بين مذهبي الصنعة والتصنيع، نجده هنا يجمع بين المذاهب الثلاثة اذ بدا يستعمل التصنع الى حد ما.

واول ما يطالعنا في كتابته هذه السجع، وقد اصبح اكثر التزاما له من ذي قبل "رشدها وعندها" كما صار اكثر تصنيعا بإيراد المحسنات البديعة كالطباق في" صغيركم بكبيركم" "وخاملكم بمشهوركم" وقربا وبعدا "واهتم بالغريب في" الاشر والبطر" والمزاوجة "زاجر وفاجر" و "نسخكم ومسخكم" "يغركم ويغريكم" ثم هاهو يضمن الايات القرآنية "وقال اني بريء منك" ويستعمل الالفاظ الاسلامية " دنيا اخرة " كما يعمد الى الاقتباس والتهويل والغموض. وهو يكثر من كل ما ذكرت بعد ان لم يكن يورده البتة. ومن جهة أخرى فقد اختفت الروح القصصية والمقامية والملحمية، لتطفو روح خطابية تذكرنا بخطب علي بن ابي طالب والحجاج بن يوسف، وزياد بن أبيه، لما فيها من ترغيب وترهيب، ووعظ وارشاد، ووعد ووعيد، حتى لا يصدق انسان انها من انشاء ذلك الكاتب الذي عرفناه من قبل.

ومن جهة أخرى فإننا نجد في رسائله الديوانية او السلطانية عن يوسف، قوة في الصيغة تعرب عن مخاطبة السيد للمسود، مما لم نعتده في رسائل المعتمد، الشاعر بهوانه، لتهاونه مع العدو ودفعه الجزية واستنجاده بيوسف بن تاشفين، وغير ذلك من المواقف المخجلة، التي زعزعت ثقته بنفسه، وانعكست على رسائله.

أما من الوجهة اللغوية، فنجد في هذه الرسائل سجعا ملتزما في الغالب، واغرابا اكثر مما عودنا في رسائله عن المعتمد، واكثارا من المحسنات البديعة وخاصة الطباق، مما يوحي لنا بأنه صار يمزج بين مذهبي التصنيع والتصنع، بدل مذهبي الصنعة والتصنيع اللذين كان يستصيغهما من قبل، كما نشتم من رسائله -في عهد المرابطين- رائحة العصبية ضد العرب في "ذؤبان العرب وصعاليكهم".

وبصفة عامة، فإنني اجد رسائله هذه أثقل وزنا من الناحية الثقافية، فهي تدل بحق على تنوع ثقافة صاحبها، وسعة اضطلاعه، ولعل تلك السنوات الثلاث التي قضاها في الظل بعيدا عن الاجواء السياسية، وأضواء الوزارة، هيات له جوا من التفرغ للدرس والبحث والتأمل، مما شحذ موهبته، وأخصب قلمه، ونمى معلوماته فبرز أثر ذلك كله في أسلوبه وكتاباته، مما لا يجادل فيه اثنان.

والذي يلفت نظرنا في هذه الرسائل انه يفتتحها بكلمة "اما بعد" كما في رسالته الى اهل مكناسة، كما نجده يزود المكتوب اليهم بدعاء لهم، يوحي بانها من أب حنون رؤوف، اي من أعلى إلى أدنى. فهو يعمد لى النصح والارشاد، والتانيب والتوجيه، والترغيب والترهيب...

فهذه الرسائل ضربت رقما قياسيا في الاخذ من مذهبي التصنيع والتصنع، حتى اننا لنجد الكاتب ابن القصيرة يقارب ابن زيدون ويضاهيه، فهو بعد ان تعددت جوانب ثقافته -كما أشرنا الى ذلك آنفا- اراد ان يفرغها في انتاجه، فجاء في مستوى عصره ومكانته، واحيانا لا يفهمه الا المثقفون مثله مع طغيان روح الخطابة على روح الترسل.

وحق ليوسف ان يشفق على رعيته من التفرقة، وان يحذرها مغبتها، ويدعوها الى الاعتصام بحبل الاتحاد "فاتركوا التباغض جانبا وتعاونوا على البر والتقوى" [1] فهو قد اضطلع عن كتب، وعايش ويلاتها وعواقبها في الاندلس، وكلفه القضاء عليها اكثر من الكثير.

كتابة العهود

لقد وجدت ضمن نثر ابن القصيرة عهدين كتبهما عن يوسف بن تاشفين:

1- عهد التولية لقاضي الجماعة بقرطبة عبد الله بن حمدين.

2- ظهير او عقد البيعة وتولية عهده لولده علي بن يوسف بن تاشفين.

فالعهد الاول يمكن اعتباره بمثابة دستور للقضاء في عهد يوسف بن تاشفين، وانه ليذكرنا بتلك النصائح الغالية التي كان يقدمها النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون المهديون، لقضاتهم وعمالهم وولاتهم، بل وتذكرنا على الخصوص برسالة عمر بن الخطاب التي تعتبر الى يومنا هذا نموذجا يعتد به القضاة ويحتذونه، ويدرس في الجامعات كدستور عام للقضاء الاسلامي، في مختلف العصور.

---

(1) جريدة القصر ج 3 ص 386

ولا بأس من ان أشير هنا الى ان نظام القضاء في الاندلس كان كما يلي -بكيفية تصاعدية-: قاضي المدينة الصغيرة او القرية، وقاضي الجماعة بمدينة كبيرة كقرطبة او اشبيلية، ثم قاضي الاقليم كله. وكان قاضي الجماعة بقرطبة يشرف على القضاء بالاندلس كلها، وكذلك قاضي الجماعة بمراكش بالنسبة للمغرب كله، وكان هنالك فقيه كبير له السلطة العليا في قضاء الاندلس والمغرب، وهو بمثابة وزير العدل.

ذلك ان يوسف كما اقتبس من ملوك الطوائف نظام الوزراء والكتاب، وجعل على رأسهم ابن القصيرة، اقتبس منهم نظام القضاء لأن الفقهاء مهدوا لدولته، وحببوا الشعب فيها، وساروا هم في ركابها. فكان هو مدينا لهم بنجاحه في المغرب والاندلس "فرد احكام البلاد الى القضاة واسقط ما دون ذلك من الاحكام الشرعية" [1] حتى اصبحت لهم الكلمة العليا في البلاد، واجرى عليهم يوسف الارزاق والاعطيات من بيت المال...

وإذا عدنا لدراسة نص العهد ادبيا نجده جامعا مانعا، منطقي الطول، فلا هو بالطويل الممل، ولا هو بالقصير الموجز، فهو بعد ان يشعره باهمية المهمة التي طوقه بها، وقيمة من يسندها اليه عنده ومكانته يوصيه ان يتولى مهمته بهدي الله وعونه، وان يكون حازما متوخيا كتاب الله وسنة رسوله بعيدا عن كل تاثير، فلا تاخذه في الله لومة لائم، وان يسوي بين الناس في السراء والضراء، في السر والعلانية، حتى يقوي الضعيف بأخذ حقه، ويضعف القوي بالاقتصاص منه، حتى يكون ناصحا لله ورسوله وامامة والمسلمين.

ثم يطمئنه بانه أمر الطائفة المتغرطسة من وجهاء المرابطين -التي كانت لا تخضع لاحكام القضاة- ان تخضع لقضائه، وتدعن لأوامره، ولا تعترض على أحكامه بل ان يوسف نفسه سيكون لهم مثلا أعلى في ذلك وقدوة يقتدونه، ويامره ان يطبق مبدأ المساواة التامة بين الحكام والمحكومين، ثم يضرب له الامثال موضحا مدى المساواة التي يهدف لتحقيقها واخيرا يوصيه بحسن اختيار اعوانه، والعمل على الرفع من مستواهم، مشيرا الى الراتب المهم الذي سيتقاضاه نظير قيامه بتلك المهمة الجليلة المنوطة به.

وهذا العهد يفتح اعيننا ويجعلنا نستشف ونستنتج، فنتوصل الى معلومات كثيرة بخلت علينا بها الكتب التاريخية والادبية، اوضن بها علينا المؤرخون والنقاد واهمها:

1- ان ابن القصيرة لم يكن كاتبا للرسائل الديوانية والسلطانية فحسب، بل ايضا مخططا ومحبرا لعهود التولية لموظفي الدولة، واعلاها وظيفة القضاة.

---

(1) قيام الدولة المرابطية ص 364.

2- وهي من جهة اخرى تلقي أضواء كاشفة لجانب مهم من جوانب حياة كاتبنا ابن القصيرة، فتدلنا على طول باعه في ميدان الفقه، والمامه التام بشؤون القضاء، واضطلاعه الواسع على السيرة النبوية، وحفظه الجيد لوصايا وخطب وعهود عصر صدر الاسلام حتى انه ليقتبس منها ويستوحيها، بل ويضمنها تضمينا صريحا" ولا يكن عندك اقوى من الضعيف حتى تاخذ الحق له، ولا اضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه" [1] فهي ماخوذة بالنص من خطبة سيدنا ابي بكر الصديق، بمجرد ما بويع بالخلافة.

3- كما يطلعنا هذا العهد على جانب مهم للحياة الاجتماعية لذلك العصر، فانه رغم المكانة التي كانت للفقهاء -وعلى رأسهم القضاة-، حتى انهم اتخذوا الكتاب والحجاب، واشرفوا على بيت المال والاوقاف، ورافقوا الغزوات وحتى اصبحوا على رأي ابن عبدون: "الحكام الحقيقيين" فكثرت أموالهم حتى حسدهم الشعراء، كابى جعفر احمد بن محمد المعروف بابن البني، الذي هجا قاضي الجماعة ابا عبد الله بن حمدين بقوله:

اهل الرياء لبستم ناموسكم	كالذئب اولج في الزمان العاتم
ملكتم الدنيا بمذهب مالك	وقسمتم الاموال باسم القاسم

قلت: رغم كل ما سلف -مما يدل على مدى نفوذ الفقهاء والقضاة في هذه الدولة- فقد كانت هنالك طبقة من أمراء المرابطين واعيانهم استعلت على أهل البلاد، ولم تخضع لاحكام القضاة، فارتدت اللثام، وتمنطقت بالسلاح، حتى كره الاندلسيون افرادها، واعتبروهم دخلاء.

ولنقف قليلا عند جملة يوسف الخالدة في هذا العهد، والناطقة بعدله مما يذكرنا بعدالة العمرين: عمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز، الا وهي: "ونحن اولاوكلهم اخرا -منذ صرت قاضيا- سامعون منك، غير معترضين في حق عليك، والعمال والرعية كافة سواء في الحق" وهنا يجب ان نطرح هذا السؤال: افمن كان فظا غليظ القلب -كما يدعي بعض المغرضين- يتواضع لله هذا التواضع، ويخفض لقضاته جناح الذل، وترق مشاعره للعامة، فيشعر شعورها، ويرفع من شأنها حتى يساويها بالخاصة في الحقوق والواجبات؟

ولا يفوتنا ان نلاحظ ونسجل ان اسلوب ابن القصيرة في كتابة العهود يختلف اختلافا جذريا عن اسلوبه في كتابة الرسائل الديوانية والسلطانية. واذا كنا قد وجدنا

(1) مخطوط الذخيرة ج 2 ص 107 .

مبررات كثيرة لاختلاف اسلوب رسائله عن المعتمد عن اسلوبها في رسائله عن امير المسلمين، فاننا لا نجد لاختلاف اسلوب عهوده عن اسلوب رسائله الديوانية في عهد يوسف الا مبررا واحدا لا ثاني له، الا وهو قولنا: لقد "اعطي القوس باريها". فابن القصيرة قد وجد في كتابة العهود ميدانا واسعا لعرض ثقافته الفقهية الدينية، ومرتعا خصبا لقلمه السيال، فانطلق على سجيته فابدع واجاد، واذا به يمزج بين المذاهب الثلاثة في النثر، من صنعة وتصنيع وتصنع، وذلك في توازن وتناسب، ودونما اي افراط او تفريط، فوشى نثره فيها بسجع في غير التزام "منهم مسحوبا... مكتوبا" ومزاوجة مطبوعة "الديانة والصيانة" والوان من البديع، لا هو بالعفوى مطلقا ولا بالمصطنع اطلاقا" صدرك ووردك " "المجمل والمفصل" مع ايراده الجمل القصيرة المتقطعة، "فاشهد بالله... وامض القضايا". وجنوحه للايجاز، دون اشباع للمعنى، وتوليد للافكار، مما اعتبره انعكاسا لبلاغة القرآن التي كان كاتبنا ولا شك من اعلامها بحكم ثقافته الدينية، ونزعته الفقهية، وحياته في بلاط امير ورع تقي، يقدس الفقهاء ويصدر عن احكامهم. "وآس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك".

عهد البيعة لعلي بن يوسف بن تاشفين

هنالك عهد آخر كتبه ابن القصيرة عن يوسف بن تاشفين، امير المسلمين وناصر الدين ويعتبر اكثر اهمية من سابقه، سواء من الناحية التاريخية او الادبية الا وهو عهد البيعة لولده علي وذلك سنة 497 هـ.

فما ان احس بقرب اجله حتى عبر الى الاندلس للمرة الاخيرة ليأخذ بيعتها لولده علي بن يوسف بعد ان اخذها له بالمغرب، وهكذا أقيم احتفال عظيم حضره علية القوم كعبد الملك بن المستعين بن هود، وكتبه كاتبه ووزيره الامين وعضد دولته ابن القصيرة.[1]

وهذا العهد يعتبر اكثر اهمية من سابقه، سواء من الناحية السياسية والتاريخية ، او من الوجهة الادبية، فقد اسهب فيه اكثر فجاء طويلا على غير عادة ابن القصيرة في رسائله وكتبه، وافتتحه بالاشارة الى اهميته، فهو صادر عن اب حنون وأمير عظيم، بمحض ارادته، وعن هدى وحسن مقصد، بعيدا عن اي تاثير عاطفي او ميل مع الهوى، ثم يذكر

---

(1) صورة مخطوط الاحاطة ص 64 والبيان المغرب ج 4 ص 43 .

اسم صاحبه، فقد ابرمه: "امير المسلمين وناصر الدين ابو يعقوب يوسف بن تاشفين". وبعد الدعاء له، يعقب بان اختياره لعلي من بين ابنائه لم يكن محاباة له، بل مراعاة لخير المسلمين، وخدمة للدين، وهكذا ذكر الاسم الكامل للمعهود اليه، دفعا لكل شك او التباس، "فهو الامير الاجل ابو الحسن علي ابنه"، ثم انتقل لتعداد فضائله ومفاخره، والثناء على أوصافه وشمائله، من علو الشيم، وبعد الهمة، فهو عالم حليم، تربى في حجر والده الكريم، فقومه وادبه احسن تاديب، ودربه على مهام الملك والرئاسة حتى تخرج عليه "المتصرف بين يدي تخريجه" فكان نعم الخلف لخير سلف، وبعد الدعاء له، عاد لذكر الاسباب التي جعلت يوسف بن تاشفين يبادر بكتابة هذا العهد. ذلك أنه اهتم بامر المسلمين من بعده، فتوخى مصلحتهم في اختيار خلفه -شأن أمثاله من المتقين البررة- اذ ليس من خيرهم في شيء ان يتركهم بعده فوضى، وقد اشار لمبدأ الشورى الذي استعمله، حين جمع ذوي الرأي والتجربة، واهل العلم والدين من قومه، فاستشارهم واستنصحهم فوقع اجماعهم على اختياره. وهكذا كانت توليته عن بصيرة نافذة، ومشورة طويلة. "فولاه عن استحكام بصيرة وبعد طول مشورة عهده"، ومن تم عمد لتحديد المهمة المسندة اليه وزمانها، فهي الامر والنهي بعده، ليقوم مقامه، ويورث ابناءه ملكه، شريطة ان يتقي الله ما استطاع، فلا يحيد عن الكتاب والسنة في احكامه، ولا يتغاضى عن المفسدين، ويكون يقظا يلبي داعي الواجب كلما دعاه، ومهما استتب الامن. ويامره ان يسوي في اهتمامه بين الاقاليم البعيدة والقريبة وفي تحصينها. "ولا يكون بين القريب والبعيد بون في احصانه وتقديره"، ولم يفته ان يصف ما جرى في ذلك المجلس -مجلس البيعة- من مسارعة الحاضرين لتلبيتها فأقسموا يمين الطاعة والولاء، طائعين مختارين. "فلبوا مسرعين واتوا مهطعين"، ثم انتقل لتعداد شروط البيعة، التي تحدد حقوق وواجبات كل من الحاكم والمحكومين، ذاكرا ان يوسف امر ان تشهر البيعة في أقاليم المغرب والاندلس، حتى تطمئن نفوس علية القوم القلقة على مصير المسلمين، ويعم الفرح والاستقرار، فينطلق الكل للعمل على تحقيق الامال"، ويستقبلهم جد صالح واقبال". ويختمه بالدعاء، سائلا الله تعالى ان يبارك بيعتهم التي اشهد يوسف الشهود على ما جاء في نص عهدها، وعلى انها كانت تلقائية اذ بايع الجميع عن طواعية واختيار. واخيرا ذكر زمان العهد ومكانه، فهو قد كتب بقرطبة، في ذي الحجة سنة 496 هـ.

والواقع ان هذا العهد، يعتبر وثيقة تاريخية عن ذلك العصر الذهبي، اذ أنه يبلور لنا كثيرا من الحقائق التاريخية والاجتماعية والدينية والادبية، فهو يعطينا فكرة كاملة عن نمط ومراحل كتابة عهود ذلك العصر، ويلفت نظرنا الى:

1- ان يوسف بن تاشفين -في هذه الاثناء- كان يحمل لقب أمير المسلمين رسميا -فاورثه أبناءه بعده- باعتراف الخليفة العباسي المقتدر، لما اشتهر عنه من الحزم والعزم، وماعرف به من ورع وتقوى، وما حققه للاسلام من انتصارات خالدة، وما وصله من تادبه معه، وتورعه من ان يتلقب بأمير المؤمنين قائلا: "حاشا لله ان نتسمى بهذا الاسم، انما سمي به بنو العباس، لانهم من تلك السلالة الكريمة، ولكونهم ملوك الحرمين مكة والمدينة، وأنا راجلهم، والقائم بدعوتهم".

2- انه كان اول من أدخل نظام ولاية العهد على الانظمة المرابطية حين صحب ولده علي إلى قرطبة، واخذ له البيعة بعد ان أخذها له بمراكش.

3- انه جمع في بيعته لولده بين مبداي: الاختيار والشورى، اذ اختار اصغر ابنائه لصلاحيته بعد استشارة ذوي الرأي والفضل، كما جعلها مشروطة بشروط أقسم عليها، فان حاد عنها تحللوا من إيمانهم، ونقضوا بيعته.

أما من الناحية اللغوية والادبية، فقد التزم السجع المطبوع "عزه وتوفيقه... طريقة"، ولم يهمل البديع من طباق وجناس ومزاوجة، مبتعدا عن الاغراب والتهويل" الامر والنهي والقبض والبسط" يعدل عن سمت العدل "عامدا الى استعراض معارفه وخاصة الدينية منها، مقتبسا من الكتاب والسنة" مهطعين" "بيعة رضوان"، جانحا الى الدعاء والابتهال". والله يبارك لهم نعم المولى ونعم النصير".

وإذا كان العهد الاول يدل على طول باع ابن القصيرة في ميدان القضاء، والمامه بكل شاردة وواردة فيه، فإن هذا العهد يدلنا على حنكته السياسية وقدحه المعلى في الميدان الدبلوماسي، فهو جامع مانع، يستقصي الشوارد، ويملأ الثغرات، فلا يترك منفذا يتسرب منه او اليه الشك، كما يذكر الزمان والمكان، والاسماء والالقاب، دفعا لكل التباس او غموض، مما يجعلنا نشعر وكأننا أمام قصة محبوكة الجوانب، لما يمتاز به اسلوبه من سلاسة في السياق، وخصوبة في الخيال، وتناسق في الافكار، وتسلسل وغزارة في المعنى، وعذوبة موسيقية في الالفاظ، تجعله نثرا منظوما، وجوهرا مرصوعا. ومع ذلك كان مصورا بارعا، ينقل المشاهد بجميع تفاصيلها لقدرته الخارقة على الملاحظة التي طبعت رسائله بالواقعية، لعدم ريائه وتكلفه.

والذي ساعد ابن القصيرة على الابداع في كتابة عهوده، والتوفيق في آدائه للغرض المقصود منها على الصعيدين السياسي والاداري وحتى الادبي، هو صدق عاطفته الجياشة نحو ما يكتبه، وانطلاقه من ذاتيته، وتعبيره عن مشاعره الخاصة المعبرة عن ايمان قوي متين بالله والوطن والمصلحة العامة...

رسائله الاخوانية

وإذا نحن تصدينا لدراسة رسائله الاخوانية، فإننا نجد احسن نموذج لها في:

1- الرسالة الودية التي راجع بها الفتح بن خاقان "فمن كلامه رقعة راجعنى بها" [1] وقد اوردها العماد الاصبهاني في جريدة القصر. [2]

2- رسالة رد بها على الوزير ابي القاسم محمد بن عبد الله بن الجد، [3] يتمنى لقاءه ويتحسر على عدم اتصالهما رغم قرب المسافة بينهما.

وإذا قلت انهما احسن نموذج لرسائله الاخوانية، فلانه كتبهما استجابة لرغبته الذاتية، وارضاء لمشاعره الشخصية الخاصة، مما جعلهما صادقتي العاطفة،ولا يجهل احد ما لصدق العاطفة من اثر في جمال الانتاج الادبي، وقيمته الفنية، فالرسالتان شكلا وموضوعا تعلنان عن كاتبهما، اذ نهج فيهما نهجه المعتاد، فهما قصيرتان، تبتدئان بولوج الموضوع مباشرة، دون مقدمات ولا تمهيد، اذ يبدأ رسالته للفتح بن خاقان، بقوله:

توصلت برسالتك المنمقة، التي رصت حروفها بعناية، "وافتنى لك ... احرف كأنها الوشم في الخدود". وهي ترفل في حلل من المعاني العذبة، او تتهادى على غصن مياد، "كالغصن الا ملود"، ثم يؤكد لابن خاقان أنه بذلك ليعد الفارس السباق الذي لا يشق غباره في حلبة الكتابة، وميدان الادب لبلاغة اسلوبه المرح. بل انه ليرى فيه معجزة عصره، تتشرف دولته بانتسابه اليها، ووجوده ضمن ادبائها"، ومعجزة تتشرف الدول بتملكها "وما اجدره في نظره بالقرب من الملوك، فهو قمين ان يكون محل اختيارهم، "وما كان اخلقك بملك يدنيك" لكن الحظوظ تخبط خبط عشواء، فلا تختار من تتجمل وتتشرف به، ولو فعلت لما اختارت غيره، ولا اهتمت بسواه "لما ضربت الا عليك قبابها".

ويعرب ابن القصيرة لابن خاقان عن رأيه في امر عرضه عليه، فينصحه بالتمهل في تنفيذه حتى يتدبره بروية وتمعن، وما عهده فيه من اراء صائبة، "فلا ارى انفاده قواما"، بل

(1) قلائد العقيان ص 117
(2) جريدة القصر ج 3 ص 383
(3) مخطوط الذخيرة ج 2 ص 120.

انه ينصحه ان يتخلى عن طباعه التي اوحت له بذلك التصرف، ويتراجع عنه، فذلك اولى به، وانفع له، واكثر تمشيا مع ما عرفه عنه من اخلاق فاضلة وسلوك حسن "اليق بك واذهب مع حسن مذهبك"، وبعد ذلك يحذزه مغبة الانفة التي دفعته لتصرفه والتي تدفع بصاحبها الى مواطن الزلل، "فقديما اوردت الانفة اهلها... لم يحمدوا صدرها"، وأخيرا يطمئنه بانه سيتدخل في الامر لصالحه قبل فوات الاوان، على ان يتوقف هو عن التصرف فيه كلية، ضاربا له عشية ذلك اليوم موعدا يعلمه فيه بتفاصيل القضية، وما تم فيها "حتى القاك هذه العشية واعلمك... القضية".

اما رسالته لابن الجد فهي كما قلنا لا تختلف عن رسالته لابن خاقان شكلا، وهو فيها يعرب له عن خجله منه خجلا يتجلى في قلمه الذي يترنح مترددا في مكاتبته حتى انه الى التراجع عنها اقرب منه الى الاقدام عليها، شعورا منه بالنقص والعجز أمامه "كتبت ولسان القلم يتلعثم" ولا غرابة في ذلك عنده، فان ما شعر به من عجز، هو مآل كل من توصل برسالة من ابن الجد، وحاول مجاراته، فهو مهما حاول لن يبلغ درجته وشاوه، بل مصيره العجز والتقصير "لجدير بالتقصير".

وبعد هذا الاسهاب في مدحه، يعلمه انه توصل برسالته الجامعة بين الشعر والنثر، ويدعو له كثيرا، ثم يقول له: ان رسالته هدات روعه اذ اعربت عن صفاء وده، ثم يعرب له عن شوقه اليه مشهدا الله انه يتخذ من شوقه شفيعا لديه، وبعد سلسلة من الدعوات، "والله وليك حيث كنت" يعتذر له عن ايجاز رسالته وقصرها، وعدم الرد على ما جاء في رسالته من شعر بالمثل "ولا الح في النظم بجواب" لأنه أدرى الناس بعذره في ذلك وبسببه "بما لا يذهب عليك" وان سمو نفسه كفيل له بأنه سيقبل عذره ويتفهم موقفه "وانت بمعاليك تقبل العذر".

فمن لغة الكاتب ابن القصيرة ومن لهجته في رسالته للفتح ابن خاقان، نتبين ان الرسالة من أعلى إلى أدنى، رغم ما يسودها من روح الصداقة والود والاحترام والتقدير الذي يكنه لابن خاقان، فهو يبالغ في الثناء على مكانته الادبية، حين يجعله فارس البلاغة السباق الذي يشرف دولته.

وكاني به شعر بما انغمس فيه من مبالغة، فخاف ان يظن ابن خاقان أنه يسخر منه، اذ لو كان كما وصفه لكان مثله في مكانة مرموقة، فصار يطيب خاطره قائلا: انه لجدير بذلك وأكثر، ولكن الحظ لم يسعفه.

وتتجلى لنا مخاطبة الاعلى للادنى واضحة في الجزء الاخير من الرسالة، حيث ينصحه -ويظهر أن ابن خاقان قد استشاره في امر ذي بال- ويؤنبه في رفق ولين "ولا ارضى لك ان تترك عيون ارائك" كما يبرز الفرق بين مكانة الرجلين في قوله: "وسأستدرك الامر قبل فواته... فتوقف قليلا" وهنا لا يبقى لنا أي مجال للشك في ان ابن القصيرة ذو مكانة في الدولة، وقادر على ان يحل مشكلة صاحبه بسرعة بل في نفس اليوم.

أما رسالته لابن الجد، فتطلعنا على حقائق كثيرة، سواء عن نفسية واخلاق ابن القصيرة، او عن عصره، فهي تعطينا نموذجا لعناصر الرسالة الاخوانية في عصره -كيف لا وهو لسان حال الملوك، والممثل الاعلى لكتاب عصره قاطبة، -بحكم منصبه السامي في ديوان الكتابة- كما تبرز لنا مدى الوعي والنبل وكرم النفس الذي كان يتمتع به كتاب ووزراء العصر، فعلاقتهم ودية للغاية يسودها الاحترام والتقدير المتبادلين، بعيدا عن التحاسد والتباغض والمنافسة المغرضة. كما تعرفنا انه في ذلك العهد البعيد كان الوزير يخاطب "بمعالي" فاستعملها ابن القصيرة في مخاطبته للوزير ابن الجد.

ومن جهة اخرى فهي تعرب لنا عن مقدار الاحترام والتقدير الذي كان يكنه الكاتب لصديقه الحميم ونده ابن الجد، وعن مكانته الادبية السامية التي جعلت ابن القصيرة يرتج عليه وعلى قلمه حين حاول الرد عليه، وربما كان ذلك أيضا سببا لاقتضابه الذي اعتذر منه، ولنفور الاوزان والقوافي وتمنعها عليه. كما ان الرسالة تشير من طرف خفي الى ان هناك اسبابا وظروفا قاهرة تحول دون ابن القصيرة والنظم، وان ابن الجد يعلمها حق العلم.

أما من حيث اللغة والاسلوب، فابن القصيرة هو هو، اللهم تلك الهالة من الاجلال والتقديس التي تحوط الرسالتين، وينطق بها كل سطر فيهما. وهو لازال متمسكا بطريقته المعهودة في المزج بين المذاهب النثرية الثلاثة: الصنعة والتصنيع والتصنع غير أننا نلاحظ امعانه في الاستزادة من كل ذلك، فقد صار سجعه ملتزما مصنعا، "الخدود... كالغصن الاملود" كما ابعد في الغريب، "سرارك الى ابدارها" "واوغل في البديع" لا تقف الا على من توقف"، بل اعتمد على التشبيه والاستعارة والكناية، "وارهف لك مفعول شباته" في تادية أفكاره، كما يستعمل المبالغة والتهويل " لسان القلم يتلعثم" "لا يدرك غبارك في مضامرها" ويكثر من الدعاء في استهلاله "أطال الله بقاءك" واياه أسأل.. " "والله يزيدك فضلا" وتخلصه، مما يبعث على الملل، ويدعو الى الاستثقال والنفور، وفي نطاق البديع لم يكتف بشقه الاول السجع، بل انه يطابق ويزاوج "يتقدم... يتاخر" "وعجز اعز مدافع"

" اصداري وإيرادي " كما يقدم ويؤخر، ويذكر ويحذف. " بنحو ما اطلعت من تلقائك " "بعزته".

وعلى كل فالرسالتان قصيرتان جدا، تغلب فيهما ابن القصيرة الفقيه على ابن القصيرة الكاتب، فجاء بسلسلة متصلة الحلقات من الدعوات وكانه على منبر مسجد يدعو ويبتهل " والله يزيدك فضلا" لكنه يقف أحيانا وقفات الفيلسوف المتامل لناموس الحياة، وسنة الكون وقانون الطبيعة "ولكنها الحظوظ..." ولعل ذلك ما اوحت به حضارة العصر وتانق الحياة، مما جعل زخرفة قصوره وتنسيق حدائقه وترصيع جواهره، يتسرب الى كتابته، ويسري الى ادبه، واننا لنجد نثر ابن القصيرة اقرب ما يكون الى الشعر المنثور، فهو شعر في قوالب نثرية مسجوعة.

سؤال واحد ظل غامضا، ولم أجد له جوابا الا وهو: ما هي تلك الاسباب التي عاقت ابن القصيرة عن النظم والتي يعلمها ابن الجد حق العلم؟ ولعل تلك الاسباب هي التي جعلته شاعرا مقلا، فرغم التنقيب الدقيق الذي قمت به ورغم استقرائي المراجع وتقريها لم اعتر له الاعلى بيت واحد، وقصيدة واحدة يتيمة.

شـعـره

ان ابن القصيرة تعددت ثقافته كما اسلفنا، لكن مما لا جدال فيه انه كان كاتبا اكثر منه شاعرا، اذ ان ما وصل الينا من رسائله الديوانية والاخوانية عديد، بينما ما وصل من شعره، لا يكاد يذكر، وربما يرجع ذلك الى ان الكتابة كانت مصدر عيشه ووظيفته، بينما كان النظم هواية يمارسها او ما يشابه ذلك. ومن يدري فلعل اشعاره ضاعت مع جملة ما ضاع من التراث الادبي لتلك البقاع الشهيدة الذي عصفت بها العصبية العمياء لمسيحي اسبانيا الذين حاولوا طمس معالم الوجود العربي بتلك الديار بكل وسيلة مهما سفلت، وبوحشية يندى لها جبين الحضارة الانسانية...

ومما يؤكد لنا ضياع الكثير من شعره، اجماع النقاد القدماء على انه كان شاعرا مجيدا، فابن الصيرفي يقول: "الوزير الكاتب الناظم الناثر" [1] ويقول العماد الاصبهاني "قرأت له في بعض التعاليق هذا البيت شاهدا له بجودة النظم". [2] وهذا البيت اورده ايضا

(1) صورة مخطوط الاحاطة ص 64

(2) جريدة القصر ج 3 ص 383

ابن دحية في المطرب من اشعار أهل المغرب، وهو في التهنئة بمولوده، يقول فيه:

لم يستـهل بكى ولكن منكرا   ان لم تعد له الدروع لفائفا

وكفاه هذا البيت شاهدا على براعته الشعرية وسعة خياله، وسرعة بديهته، فقد استطاع بلطخة واحدة من ريشته الفنية، ان يعطينا صورة متكاملة قد لا يوفق اليها مصور مهما اكثر من الالوان والاصباغ، مع تشبيه بليغ سام، يدل على رسوخ قدمه في البلاغة. فقد شبه ازدياد المولود باستهلال القمر، شبهه به في حسنه وجماله، ثم برهن على قدرة فائقة على سرعة الانتقال في الوصف، حين علل وفسر بكاء الطفل بمجرد ازدياده، بأنه سيكون بطلا مغوارا.

وهذا ان دل على شيء فإنما يدل على أن الشاعر تأثر بظروف عصره أكبر تأثير. كيف لا وهو الذي عاصر عهد ملوك الطوائف الذي عرف الفتن والحروب الداخلية التي لا تخمد هنا الا لتشتعل هناك، عصر سادت فيه شريعة الغاب، فصار البقاء للأقوى، عصر ابيدت فيه كل القيم الدينية والروحية والضمانات الاجتماعية، فانطوى على الغدر والخديعة، عصر ماتت فيه الضمائر حتى ان الملك المسلم ليستعين على انتزاع ملك أخيه بملك اجنبي متربص ابتغاء زينة الحياة الدنيا. فما احرى اطفاله ان يولدوا في الدروع، ليتقوا بها شر عصرهم، ويردوا بها ذلك السيل المتدفق من اعداء الاسلام الذي طفى حتى جرف الجزيرة كلها.

كما أنه عاش عصر المرابطين، الذي طبع بطابع الجهاد في سبيل الله، والاطاحة بملوك الطوائف المارقين، وصد عادية النصارى عن الثغور الاسلامية، وتقليص ظلهم عنها. فما احوج اطفاله الى الدروع بدل الالحفة، ليكونوا في مستوى عصرهم.

فهذا البيت وان كان غرضه التهنئة بمولود،[1] فإننا نلمس فيه روحا حماسية من وحي عصره وظروف بيئته، فقد كان عصره عصر كروفر، وضرب وطعن، عصر حروب وفتن وقلاقل سواء مع النصارى او مع الجيران، مما كان حريا ان يكسب الادب العربي بتلك الاصقاع ملاحم رائعة، لكنهم خلدوا لشعر الضعف والشكوى، والبكاء والاستكانة، ولعل مرجع ذلك للنفسية الاندلسية الوديعة المستسلمة لاحلام الطبيعة، المنغمسة في الرخاء والترف، مما اثقل على السنتهم صفات البطولة والشجاعة فاقتصر شعرهم الحماسي على

(1) المطرب في اشعار اهل المغرب ص 76 وخريدة القصر ج 3 ص 383 .

وصف المعارك الحربية لملوكهم خلال مدحهم. فهم شعراء مصورون يدفعهم التقليد لا العاطفة.

اذن فهذا البيت فريد من نوعه، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، فهو فريد في عدده ونوعه، اذ شذ فيه عن التيار العام لشعراء الاندلس في عصره. ولا نجد فيه ضروب التصنيع -شأن باقي شعره- ولا غيره من المذاهب، اللهم الصورة الناطقة التي يعجز اي مصور مهما اوتي من اصباغ والوان ان يرسم مثلها وبنفس السرعة. كما أنه ينطق بالتشخيص، مما اقتضاه التصوير الذي برع فيه سواء في شعره أو في نثره.

فرغم ان الاندلسيين لم يفلحوا كثيرا في الاستقلال عن الشرق في شعرهم، الا أننا نجد فيه خيوطا اندلسية دقيقة لا يلمحها الا ذو حس مرهف ونظر دقيق، ومعلومات واسعة. فطبيعة بلادهم الجميلة جعلتهم يتفوقون في شعر الطبيعة ويتخذونه اطارا لجميع الاغراض الاخرى، كما امتازوا باخيلة رائعة ولعب بالمعاني لغنى بيئتهم واحتكاكهم بالعالم الاوربي عن كتب، ولو أنهم استطاعوا التحرر من تبعية الشرق لجاؤوا بالعجب من قصائد ليست موحدة الابيات حسب المعاني، بل معتمدة على وحي النفس لا على العادات والتقاليد الموروثة لمألوفة، لما في بيئتهم من جمال ساحر اخاذ فاظهروا فيه عبقرية نادرة وخاصة الطبيعة والعمران ومجالس الانس والطرب، لكنه مع ذلك لم يستقل كفن قائم بذاته بل تخلل الاغراض الاخرى. وشعر الطبيعة عندهم، مهد لاختراع الموشحات والازجال، التي غنت طبيعة الاندلس ولهولها، كما وصفوا المعارك لكثرة حروبهم مع بعضهم ومع النصارى، لكن خلال المدائح.

وهذا ما نجده في قصيدة لابن القصيرة [1] يأتي فيها على ذكر ووصف كثير من اعمال المعتمد بقرطبة خلال مدحه، حتى انه لا يمكننا الفصل بين الغرضين: المدح والوصف جاعلا كل ذلك في إطار الطبيعة، متناولا فيها الطبيعة الحية والصامتة بفرعيها الطبيعي والصناعي، محاولا التخلص مما كان سائدا من جعل الاطار الطبيعي صورة لما تراه العين جاعلا منه مشاركة للعواطف التي توحيها الطبيعة. وانفعالا ذاتيا لشعوره، وتشخيصا للطبيعة على نحو انساني ملؤه الحركة والنشاط. لكنه نظر الى الطبيعة نظر مصور فالتحم بها بكيفية رومانسية، وابتدع صورا جامدة.

---

(1) صورة مخطوط الاحاطة ص 64.

وقد تطور شعرهم هذا من مدح ملوكهم حين تغلب بعضهم على بعض -كما في القصيدة التي نحن بصدد دراستها- الى رثاء البلدان الساقطة في يد مسيحيي الشمال، ثم الى رثاء الدول الزائلة، واخيرا الى رثاء الاندلس كلها.

وفي هذه القصيدة يمدح ابن القصيرة المعتمد بن عباد عند خلعه لابي الوليد بن جهور واستيلائه على قرطبة ومطلعها:

فسل عنه احشاء ابن ذي النون هل سرى فيها سكون مذ زلزلها الذعر

وإذا نحن تصدينا لتحليلها ودراستها -بيتا بيتا-، فإننا نخرج منها بالافكار الاتية:

فالشاعر يتساءل عن احشاء المامون يحيى بن ذي النون، هل عرفت للاطمئنان والراحة معنى مند ارتكب جريمته النكراء التي اقضت مضجعه وزلزلت كيانه، خوفا من رد فعل المعتمد حليف عبد الملك بن جهور وبطشه، فظل خائفا متربصا لا يذوق طعم النوم -رغم هجومه- ينتظر مصيره المحتوم حتى جاءه، فأخرج عن قرطبة ذليلا طريدا.

ثم يسأل المعتمد عن ابن ذي النون، الم يلاحظ -حين مطاردته- استفادته منه ومن بطولة جيشه؟ ثم يرد الجواب بهيهات، مشبها المعتمد بالبدر الذي بدد نوره ظلام ابن ذي النون الثقيل الذي كان مخيما على قرطبة.

وهكذا برهن المعتمد -بانتصاره وطرده لابن ذي النون، واطاحته بابن جهور، واستيلائه على قرطبة-، على عبقريته ونبوغه المعهودين، رغم انف ابن ذي النون الذي ذهبت احلامه ادراج الرياح. واطاحت نباهة المعتمد بما بناه من آمال، فأصبحت هباء منثورا، وهو ما عبر عنه بصفر.

فالمعتمد بعد استيلائه على قرطبة نشر فيها العدل، فباهت غيرها من البلدان، وداخلها الكبر والغرور، فهي عاصمة الاندلس السياسية والثقافية في مختلف عصورها، ومنبث العلماء والادباء، ومولد الزهراء، فإذا اهينت وانتهكت حرمتها بغزو ابن ذي النون، فها هو المعتمد قد انصفها، واقتص من ظالميها، فالبسها حلة العدل الفضفاضة، فاختالت فيها حتى اصابها الكبر والغرور، وما اجدرها بهما!!

فابن عباد -بجوده على أهلها وسخائه وكرمه-، قد اعاد لها الحياة التي حرمت منها طيلة حكم ابن جهور، وأيام محاصرة ابن ذي النون. فكما يحيي الماء الارض، احيى

جوده الناس، فانتعشوا ودبت فيهم الحياة، وعادوا لمزاولة نشاطهم، كما تروض الساحات بالماء وتدق فتعبد للمارة، او تروض فتصير روضة زاهرة فما اجمل الصور، وما ابدع الخيال، وما أمهر الشاعر، ففي هذين البيتين نجد خاصية من خصائص شعر الاندلس المتنوعة، الا وهي المزج بين غرض المدح وشعر الطبيعة.

ويعود لمخاطبة المعتمد مباشرة فيقول: ان حب السكان لك واضح، يتجلى في تلك الجموع الغفيرة التي تقاذفتها الديار، فتسابقت للقائك، والتعبير عما تكنه لك من الحب الخالص والولاء الصادق، خاصة بعد ان خلصتها من ربق ابن ذي النون وشرذمته. ان صور هذا الشاعر الحية الناطقة في هذه القصيدة جديرة بكل اعجاب، وخاصة في قوله: "ترامت بأهلها الديار" ولعمري انها لا نصع صورة واجلاها.

ولا تظن ان اهل قرطبة استكانوا او سكتوا على الضيم، لقد دافعوا دفاع الابطال ولم يرضخوا للامر الواقع الامراعاة لمصلحة البلاد العليا وبرا بالوطن، وحقنا لدماء المسلمين، فصبروا لضيم ابن جهور- الى حين -، منتظرين الفرصة السانحة، فما ان واتتهم حتى بادروا بالانضمام الى صفك وتاييدك والاستمساك بطاعتك، والتعلق بحبلك.

وها قد جئت بخيلك ورجلك ، فمحوت عارهم، وكللت جبينهم وبواتهم من المجد مكانة رفيعة حصينة منيعة لا يستطيع تعاقب الليل والنهار ان يثلم حجرة من حصنها الحصين ومعقلها المنيع الذي ينافس الدهر البقاء، مسعرا خده شامخا بأنفه، فما أجمل البيت، وما أروع الاسلوب، وما اصدق العاطفة.

نعم ان الفضل الاول والاخير في انقاذهم وتبوئهم تلك المكانة المرموقة يرجع لك، اذ لولا مدافعتك الاعداء عنهم، ومبادرتك بانقاذهم وعتقهم لصرعهم الاعداء، واذاقوهم مرارة الاسر وذل الرق، فانت الذي كسرت سلاسلهم، وفككت قيودهم التي طوقهم بها ابن جهور والتي كان يريد ابن ذي النون ان يغلهم بها، فجعلتهم احرارا بعد عبودية، وسادة بعد ان كانوا مسودين، وابيت الا ان تغدق عليهم من نعمك فاكرمتهم وآويتهم الى ظل دوحتك الوارف الذي شملتهم به كبيرا وصغيرا، قريبا وبعيدا، فوجدوا في رحابك -الواسعة العريقة الاصيلة في المجد-، مرتعا خصبا يانعا، فلاذوا به واطمانوا اليه. وانها لتشبيهات تعتبر هي البلاغة، والبلاغة هي.

ويعود للتساؤل هل ذاق عبد الملك بن جهور طعما للراحة منذ ان هرت كلابه المعتمد، وهل استطاعت الخمر التي اكثر من شربها -بغية النسيان والتغلب على ما يعانيه من خزي الهزيمة وعار التسليم- ان تؤنس وحشته، او تسكن نفسه. او تهدئ روعه.

لقد بلغت منه كل مبلغ اذ شتان بينكما، فانت ميمون النقيبة منصور الراية لقوتك ويمنك، وهو سيء الطالع مشؤوم النقيبة لضعف قوته وسوء طالعه، فحين لجأ اليك انجدته وحين لجأ اليك اهل قرطبة انجدتهم منه.

ولطالما اغتر بامتلاكه قرطبة، وطالما تمتع بحب اهلها وخيراتها، لكنك اقصيته عن كل ذلك، فلم يكد يشعر بدفئها وحنانها حتى ابعدته وحللت مكانه، ويالها من صورة ناطقة يرسمها لنا ابن القصيرة في هذا البيت! فقد تخيل قرطبة مرضعا ضمئ ابن جهور فتلهف عليها وسعى اليها، وما كاد يستانس بحنانها ويستشعر دفءها حتى جاء المعتمد واقصاه عنها، ونهل هو ما تدره من حب اهلها واستثمار خيراتها، وتسيير امورها، وسياسة أهلها...

فانظر يا ابن عباد الى -قرطبة التي تستقبلك اليوم-، كيف طمس خمول ابن جهور معالم حسنها وجمالها، فصارت - وقد ملكها هذا الجبان الرعديد والخامل التافه- كأنها لآلئ طمرت، فأطفأ الغبار بريقها، وغطى التراب مفاتنها، فياله من خيال جبار، ويالها من تشبيهات صائبة بليغة "وما يلقاها الا الذين صدقوا، وما يلقاها الا ذو فضل عظيم".

حتى الطبيعة احتفلت بمجيئك، فهي تحييك وترحب بك بدورها، وتسلم اليك زمام امرها، فانظر الى اعتدال هوائها وطيب نسيمها اليوم، انها تهيئ لك جوا مناسبا ليروقك السمر بها، فلا تغادرها بعد اليوم مطلقا. فحتى جو البلاد يرحب بك.

فاهل قرطبة اعربوا لك اليوم عن طاعتهم التلقائية الجماعية التي لم يشذ عنها الكهل ولا الطفل الصغير. فقد اجمعوا على طاعتك تلقائيا: كبيرا وصغيرا شبانا وكهولا.

وتقليدك امرهم ليس لمصلحتك بقدر ما هو لمصلحتهم، فقد تأكدوا بان الحكم مسؤولية جسيمة وواجب مقدس لا يستطيع تحمل عبئها غيرك، اذ يتساوى في العجز عن القيام بها والاضطلاع بامرها، مجربهم المحنك وغمرهم الذي تعوزه التجارب والاحتكاك بالحياة، ومعرفة خباياها واسرارها...

فانت بما قمت به من اجلهم - من تحريرهم والانعام عليهم وضبط امورهم -... اعدت ليلهم نهارا بعد ان كانوا يخبطون خبط عشواء، فاختلطت عليهم السبل، وأصابتهم الاهوال والمصائب والفتن، فاظلمت حولهم الدنيا وأصبح نهارهم ليلا حتى في اجلي وانصع ساعات النهار، وهي الظهر.

بعد هذه الدراسة الخاطفة لهذه القصيدة التي اعطتنا فكرة عن الشاعر ومستوى شعره، يحق لنا أن نتساءل: لماذا اهمل هذا الشاعر الفذ طيلة هذه القرون؟ ولماذا لم نسمع عنه قط كغيره من فحول مختلف العصور؟ بل لماذا نجد مؤرخي الادب في عصره اما سكتوا عنه، او اشاروا اليه اشارة عابرة وكانه لا يستحق الذكر، رغم مكانته الاجتماعية والسياسية والعلمية والادبية؟ ولماذا قل ما وصل من شعره رغم جودته؟.

بعد اعمال للفكر وتمعن في كل ما عرفناه عن ابن القصيرة، وعلى ضوء عصره يمكننا الاهتداء الى الجواب التالي:

لقد عاش ابن القصيرة في عصر ملوك الطوائف الذي لم يتقدم له نظير في تاريخ الاندلس الثقافي، اذ فيه كثر الانتاج وخصب في مختلف فروع المعرفة وخاصة الشعر، فشعراؤه المجيدون لا يحصون عـدا، بل ان الشعر نزل من قصور الامراء ونوادي الادباء الى دكاكين الصناع وأكواخ الفلاحين، كما برعت فيه النساء...

وكان ابن القصيرة في بلاط بني عباد بإشبيلية الذين كانت لهم زعامة الادب في الاندلس، فاجتمع لهم ما لم يجتمع لغيرهم من الشعراء المبدعين المتفننين، -ممن سبق ذكرهم-، وكان على رأسهم جميعا ملكهم المعتمد بن عباد الذي ورث الشعر ابا عن جد، فنظمه عن قريحة فياضة لا عن رغبة او رهبة، وصارت اشبيلية في عهده قطب الحركة الادبية، فجمع بين الزعامة السياسية والادبية في الاندلس. ولا ننسى اثر طبيعة اشبيلية الخلابة في دفع عجلة الشعر الى الامام، وقد ضمته اشبيلية بجمال مناظرها وروعة نهرها ومرح اهلها، بشعرها وغنائها، ولهوها وخمرها، فتبسط أمامه لهو الحياة، وعز السلطان في بلاط المعتمد الذي جمع مباهج الدنيا ولذاتها.

كل هذه العوامل مجتمعة كان لها اكبر الاثر في انزواء شاعرنا تلقائيا او اجباريا، وسكوته عن قول الشعر. فقد كان شاعرا وناثرا، فراى هذا الخضم المتلاطم من الشعر والشعراء، وآثر الانسحاب من ميدانه -الذي كثر فيه المنافسون-، فعصفت ريحه، وراجت سوقه، وانصرف الى الكتابة بكليته -خاصة وقد اصبحت مهنته- فخبر اسرارها وبلغ فيها مبلغا عظيما وشأوا بعيدا. ويجب الا ننسى ان شاعرنا كان فقيها والفقهاء عادة ينفرون من الشعر لما فيه من اغراض تزرى بالدين والاخلاق، كالغزل والهجاء والفخر، ثم ان مجالس الشعراء دائما ملتقى انواع اللهو والعبث، ومجال الغناء والرقص والمنادمة، وما الى ذلك مما يظهر ان شاعرنا يربا بنفسه عنه لورعه وتقواه، وجديته واستقامته، ولما

يزعمون من تحريم القرآن له في قوله تعالى: «والشعراء يتبعهم الغاوون...» اضف الى ذلك شاعرية المعتمد الذي القى بثقله في الميزان وعبقرية ابن زيدون -ولي نعمته الذي كان له فضل تقديمه للمعتضد- فانى له ان يرفع عقيرته وصوته امامه بالشعر او ينافسه مكانته عند المعتضد او المعتمد وهو الذي يعتبر معجزة عصره ومفخرة شعراء الاندلس. وكيف يمكنه ان يخوض فيما خاض فيه غيره من الشعراء المحيطين بابن عباد وقد شاهد -بام عينيه وعن كتب- مآلهم، كابن عمار الذي كان مصرعه على يد لسانه الذي هجا به زوجة المعتمد اعتماد الرميكية، واولاده منها...

واذا كان الشعراء قد سمت مكانتهم فغنموا واثروا، فإنهم كانوا مهددين بزوال النعمة لمجرد ادنى وشاية، ناهيك بابن عمار، وابن زيدون. فشعراء هذا العصر كانوا منغمسين في حماة من الدسائس لكثرتهم ووءرة النقاد. لذا كانت حياتهم حياة تنقل كشعراء التروبادور الذين كان عليهم ان ينشدوا ليعيشوا.

كل هذا ترفع عنه ابن القصيرة اذ ابت عليه همته العالية، ان يزج بنفسه في لجة هذه الحماة الموبوءة، فوجد في ممارسة الكتابة الديوانية جوا لطيفا ساميا محترما...

فاحتفظ بكرامته الادبية بين هؤلاء، وعلى رأسهم المعتمد الذي كان شاعرا بالطبع، فلم يعرض نفسه لنقده او مناظرته، وهو الذي الهب عواطفه: حبه، وشربه، وملكه وثكله وعزله حتى اعتبرت حياته هي شعره وشعره حياته.

هكذا تنحى ابن القصيرة عن ميدان الشعر توفيرا لكرامته، وترفعا وابتعادا عن مواطن الزلل، واكتفى بممارسة هوايته في النظم -من حين لآخر-، في المناسبات الكبيرة المهمة، كما رأينا في بيت التهنئة بمولود، ثم في هذه القصيدة التي يمدح فيها المعتمد، ويعرض بابن ذي النون، وابن جهور.

ونجد في الرسالة الاخوانية لابن القصيرة الى ابن الجد، تلميحا الى ان هنالك اسبابا تحول بينه وبين النظم، يعرفها ابن الجد "ولا الح في النظم بجواب، بما لا يذهب عنك من الاعذار... وانت بمعاليك تقبل العذر وتتاول الامر". [1]

وإذا نحن وضعنا هذه الابيات المعدودة التي وصلتنا عنه على محك الشعر نجد انه كباقي شعراء الاندلس لم يخضع الشعر لشخصيته، بل خضع هو لموضوعه وافكاره ومعانيه واخيلته واساليبه، كما نجده يخلط بين جميع المناهج والمذاهب المعروفة في الشعر الى

(1) مخطوط الذخيرة ج 2 ص 120

عهده، واذا كان ممن عمل على نهضة الشعر الاندلسي في القرن الخامس، ففي حدود الصورة العامة للشعر العربي، فهو يبديء ويعيد في كل من مذهب الصنعة والتصنيع والتصنع، في غير نظام ولا نسق ظاهر.

ففي هذه القصيدة نجد مدحا للمعتمد، ودرج فيه الاندلسيون في عصره على حسن الاستهلال وحسن التخلص [1] وربما استهلوا بوصف الخمر، او الطبيعة، او المحبوبة، او بلدة الشاعر، مع ايجاز فيه، وابتعاد عن الغريب، تقليدا للمشارقة الذين فعلوا ذلك بعد ان تخلصوا من عهود الشعر العربي ومنهج القصيدة الجاهلية،(المقدمة الغزلية والطللية) بعد تلك الثورة العارمة، والحرب التي لا هوادة فيها التي شنها ابو نواس على ذلك اما شعوبية او تجديدا، مما لا يدخل في نطاق بحثنا.

وإذا كان الاندلسيون قد استهلوا قصائدهم بما ذكرنا استئناسا وجلبا للسامع، فإننا نجد ابن القصيرة قد استهل قصيدته بصلب الموضوع دونما اية مقدمة، غير ان الفاء في صدر البيت الاول تنبئنا ان هنالك ابياتا اخرى لم يوردها ابن الخطيب كانت مقدمة للقصيدة، مكتفيا بالابيات التي تتعلق بالموضوع مباشرة، الا وهو التعريض بابن ذي النون وابن جهور ومدح المعتمد.

هذا فيما يتعلق بالاستهلال، لكننا نجده ساير شعراء عصره في الايجاز مكتفيا باللفظة عن العبارة. وبالعبارة عن البيت وهكذا. فكل لفظة الا وتنوء تحت عبء ما تحمله من معاني كثيرة متنوعة هادفة، فلنمعن النظر في البيت الاول، لنرى كيف اختصر كل الاحداث التي عرفتها قرطبة في تلك الآونة -مما خصصت له مؤلفات- في قوله: "مذ زلزلها الذعر" وكيف اوجز تبخر آمال ابن ذي النون واحلامه الكبيرة بقوله: "مما توهمه صفر" وكيف استعرض شريط المهرجانات التي أقيمت في الاستقبال الذي خصص للمعتمد في قوله: "ترامت بأهلها الديار محبة" وكيف اعتذر في مهارة -على لسان اهل قرطبة- عن تقاعسهم بقوله: "لما امر البر" وكنى عن احسان المعتمد اليهم" النعم الخضر" وصور اجماع اهل قرطبة عليه بقوله: "الكهل والناشئ الغر" ثم "المجرب والغمر". كما كنى عن نشره للأمن والخير بقوله: "اعدت نهار ليلهم" واختصر ما قاسوه من اهوال في عبث ابن جهور، وعلى يد ابن ذي النون في "اراهم نجوم الليل في افق الظهر".

ونجد في هذه القصيدة خاصية اخرى من خصائص الشعر الاندلسي الا وهي المزج بين المدح وشعر الطبيعة او جعل المدح في اطار الطبيعة الحية او الجامدة في الابيات: الثاني،

(1) مخطوط الذخيرة ج 2 ص 120

والخامس، والعاشر، والثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، والتاسع عشر، كما ابتعد كلية عن الغريب ووحشي الكلام والتعقيد، فلا تجد في القصيدة كلها اي بيت يتطلب الشرح، فالالفاظ سهلة عادية، ليس فيها اغراب ولا حشو، تنساب في تسلسل منطقي، فكأنها لغة الحديث، وحتى المعاني سلسلة سهلة، ليس فيها غموض او التواء مما نجده عند ابي العلاء او ابي تمام بالشرق، او ابن هاني بالاندلس، او غيرهم ممن ارادوا الظهور فوقعوا في الاسفاف والسقوط.

فاعتناؤه بلفظه ومعناه، ادى لظهور الواقعية في شعره -كما ظهرت في رسائله-، حتى ليمكننا اتخاذ هذه القصيدة وثيقة تاريخية، كما اتخذنا رسائله كذلك، ولا ننسى انه مصور دقيق الملاحظة، لذلك نقل لنا المشاهد حية في اسلوب قصصي متنوع ينتقل فيه بين السؤال والخبر والنفي، والامتناع والتعجب. مما يأسر القارئ او السامع، ويأخذ بلبه.

والواقع اننا نستشف من بعض ابيات هذه القصيدة روح او نفس الهجاء لابن ذي النون الا أنه عارض اقتضاه الموضوع، فهو هجاء ضمني لم يقصده الشاعر لذاته. والا فان الهجاء ركدت ريحه في الاندلس، لانعدام الاحزاب السياسية، فانقضى بانقضاء عهد الولاة، واذا كانوا قد هجوا احيانا الافرنج -عندما استفحل امرهم، وفي ظروف اخرى-، فقد كانت غايتهم التكسب او المجون، فشحنوا هجاءهم بالاقذاع الفاحش، كنقائض ابي بكر المخزومي الاعمي، ونزهون بنت القلاعي الغرناطية.

ومن جهة أخرى نجد ابن القصيرة ضرب خواطره، وأفكاره وصوره، -رغم روعتها- على النماذج المشرقية، فخلط بين مذهب الصنعة والتصنيع والتصنع، -كما سبق ان قلنا-، في غير طريقة مرسومة، ولا خطة موضوعة. اقتداء منه بحامل لواء شعراء الاندلس في عهده ابن زيدون الذي ابعد في ذلك واوغل حتى سماه النقاد بحتري المشرق.

فابن القصيرة يطابق في البيت الاول بين سكون والذعر "وبين السر والجهر" في البيت السادس، وبين "اوحشتك وتؤنسه" في الحادي عشر وبين الكهل والناشئ في السادس عشر"، والمجرب والغمر في السابع عشر ثم بين النهار والليل في الاخير. كما جانس بين الغمر في السابع عشر وغمر في آخر الثامن عشر، ويتصنع لذكر الغلب والعثر، وهكذا نجده قد اهتم بالوان التصنيع من طباق وجناس وتشخيص وما يندرج تحتها من صور واخيلة، ووقف بالخصوص عند الصور الحسية في تصنيعه، ونقل اوصاف الطبيعة.

هذه دراسة مبسطة لشعر ابن القصيرة، في عصر ملوك الطوائف والمرابطين حسب ما وصلنا من شعره، حاولت رغم قلته -بل نزره-، ان اغوص في ابياته حتى الاعماق، لا صبر غورها، كما استقصيتها دراسة وبحثا، وتحليلا وتعليلا ومقارنة، سواء من حيث الغرض او من حيث الشكل والمضمون، او من حيث اللغة والاسلوب، مفرغة كل ذلك في اطار البيئة الثقافية والسياسية، مقارنة شعره بشعر عصره، كاشفة عن خصائصه ومميزاته، وتجديده وتطوره، سواء بالنسبة لعصره او بالنسبة لمعاصريه من فطاحل الشعراء.

خــــاتمــــة:

ان الذي ميز ابن القصيرة وادبه واعطاه مكانته التي تبواها بين الادباء ان حياته تقع في عهدين متميزين ومتباينين:

- عهد ملوك الطوائف عموما والدولة العبادية خصوصا، ولا سيما عهد المعتمد بن عباد.
- وعهد الدولة المرابطية عموما، ويوسف بن تاشفين خصوصا.

ففي العهد الاول استقبل الحياة ثم الاسباب التي هيات شخصيته، حتى استوى عالما فقيها اديبا الى ان التقى بابن زيدون، الذي تفطن لنباهته وموهبته فادخله بلاط المعتضد، فكان قيدا له حدد معالم انتاجه، وبالتالي ابرز مظاهر شخصيته...

فالعهد الاول كان عهد تكوين وتدريب، والعهد الثاني كان عهد النضج والنبوغ. الاول كان فيه شابا يافعا قضاه في الكبت والخضوع، والتشذيب والتهذيب، والمداراة والمسايرة، والثاني اصبح فيه رجلا ناضجا مكتمل الشخصية، موفور الوسائل الادبية والعلمية...

وبين العهدين قضى فترة حالكة مظلمة امتدت ثلاث سنوات، لا نعرف عنها شيئا اللهم انه قضاها هاربا مع جملة من هرب من حاشية المعتمد، منكوبا محروما، تائها متطلعا، متربصا مترقيا...

والراجح عندي انه قضاها في التأمل والتدبر، والدرس والتمحيص، والاقدام والاحجام، وانها شحذت موهبته الادبية، وعمقت مشاعره الانسانية، وصقلت روحه الدينية، ومسحت عن قلمه ما علق به من اذران العهد البائد -عهد المعتمد- فانتفض انتفاضة الامة الاسلامية -اذ ذاك-، وهزته رياح النصر والغلبة، فانطلق في نشوة عارمة، يسجل لنا في انتاجه ذلك التطور الكبير الذي خضعت له حياة المسلمين في تلك البقاع الشهيدة.

فهرس الموضوعات

الباب الاول

الفصل الأول

الفصل الثاني

الباب الثاني

الفصل الأول

الفصل الثاني

الباب الثالث

الفصل الأول

فهرس المراجع والمصادر

المرجع	الجزء	المؤلف
- قيام دولة المرابطين	-	الدكتور حسن احمد محمود
- مخطوط الذخيرة	الثاني	ابن بسام
-خريدة القصر وجريدة العصر	الثالث	العماد الاصبهاني
- قلائد العقيان	-	الفتح بن خاقان
- صورة مخطوط الاحاطة	-	ابن الخطيب
- البيان المغرب	الثالث والرابع	ابن عذارى المراكشي
- الاعلام بمن حل بمراكش واغمات	الثاني	عباس ابراهيم المراكشي
- المغرب في حلى المغرب	الاول	ستة من الاندلسيين - تحقيق وتعليق شوقي ضيف
-نفح الطيب	الاول والثاني	المقري التلمساني
- الادب الاندلسي	الاول	احمد بلا فريج - وعبد الجليل خليفة
- المغرب العربي في العصر الوسيط	القسم الثالث	ابن الخطيب
- تاريخ العلامة ابن خلدون	المجلد الرابع	ابن خلدون
- وفيات الاعيان	الخامس	ابن خلقان
- الكامل في التاريخ	العاشر	ابن الاثير
- اعمال الاعلام	القسم الثالث	ابن الخطيب
- في الادب الاندلسي	-	الدكتور جودة الركابي
- الفن ومذاهبه في الشعر	-	الدكتور شوقي ضيف
- ظهور الاسلام	-	احمد امين
- المطرب من اشعار اهل المغرب	-	ابن دحية
- المعجب في تلخيص اخبار المغرب	-	للمراكشي
- الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى	الثاني	الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصري
- التبيان	-	لعبد الله بلكين
- الفن ومذاهبه في النثر	-	الدكتور شوقي ضيف
- المعتمد بن عباد	-	الدكتور عبد الوهاب عزام

ملحق

هذه جملة رسائل لابي بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة، لم تمتد اليهايد الطباعة بعد، بعضها مما قمت بدراسته في هذا البحث، وبعضها الاخر مما لم يقع عليه اختياري لذلك اوردها فيما يلي:

1- رقعة وردت على الجناح، بهزيمة الطاغية اذفونش -قصمه الله-، يوم الجمعة المشهور، الذي اباد الله فيه عبدة الطواغيت على يدي امير المسلمين وناصر الدين ابي يعقوب يوسف بن تاشفين، رحمه الله، قال فيها: [1] "كتبت صبيحة يوم السبت الثالث عشر من رجب، وقد اعز الله الدين واظهر المسلمين، وفتح لهم بفضله على يديه تعالى الفتح المبين، بما يسر الله في أمنه وسناه، وقضاه من هزيمة اذفونش بن فرذلند، اصلاه الله اركان الجحيم، ولا اعدمه اركان امحل العيش الذميم، كما قنعه الخزي العظيم، واتيان القتل على اكابر رجاله وحماته، وأخذ النهب -في سائر اليوم والليلة المتصلة به- الى جميع محلاته،وحضور العدد الوافر ولم يختر منها الا ما قرب، وامتلاء الايدي مما قبض ونهب، واتخذ الناس من هامتهم صوامع يؤذنون عليها ويشكرون الله تعالى على ما صنع فيها. والتتبع بعد في اثارهم وتمادي الطلب من وراء فرارهم، والذي لا مرية فيه ان الناجي منهم قليل، والمفلت من سيوف الهند بسيوف الجوع والبعد مقتول، ولم يصبني بحمد الله الا جرح اشوى، وعنت رعب حسن الحال عندي وزكى، فلا تشغل بذكره بال، ولا تتوهم فيه غير ما اشرت اليه، والحمد لله على ما صنع حق حمده، وهو اهل المزيد الذي لا يرجى الا من عنده".

2- ثم ورد كتاب من انشائه يشرح مجمل هذا الفتح وتفصيله، قال في بعض فصوله:[2] "وقد علم ما كنا عليه قبل مع عدو الله اذفونش بن فرذلند -قصمه الله- من تطاطئنا واستعلائه، وتعامينا وانتخابه، وانا لم نجد لدائه دواء ولا لبلائه انقضاء ولا لمدة الامتحان به فناء، الى ان نبهنا الله تعالى من استصراخ امير المسلمين يوسف بن تاشفين، فحمى الحمى -ايده الله-، فلم ازل اصل بيني وبينه الاسباب، واستفتح الى ما كنت اتخيل من ناي دياره وشحط مزاره ما ادنى، واستفتح الى ما كنت اتخيل من نصره الابواب، الى ان ارتفعت الموانع قبله، وانتهجت السبل القيمة له، ثم اجاز على بركة الله وعونه، يريش ويبرى، وصار بعد قدما يحلق ويفري، ويتتبع وجوه الحراسة... ويستقرى،

(1) مخطوط: الذخيرة، الجزء: الثاني، ص 100

(2) نفس المصدر، ص 101

وانا انجده بوسعي واسعده على حسب ما يطيقه ذرعي، الى ان سرنا معشر الخلفاء لبطليوس -حرسها الله- واتفق راينا -بعد تشاور- على قصد قورية -حرسها الله-، وسمع العدو -لعنه الله- بذلك، فصمد من محشره اليها، في جيوش تملأ الفضاء وتسد الهواء وتمنع ان يقع على ما تحت راياته ذل، قد تحصنوا بالجبن من قرونهم الى اقدامهم، واتخذوا من السلاح ما يزيد في جراتهم واقدامهم، ولما شارف على خبائها ولبابها، ودنا من اعلامها، و،لم يتجه لنا بعدما اردنا من المامها. دعاه تعاطيه الى مواجهة سبيلنا، وحمله نزقه وتهوره على السلوك في مدرج سيولنا، فدنونا اليه بمحلاتنا -نصرها الله-، ثم اضطربناها بازائه، واظللنا عليه براياتنا حتى كدنا نركزها بفنائه، وراى -لعنة الله- ما اعتمدنا من اصغاره واخزائه، فاجمع مضطرا على اللقاء، وقدم بعض اخبيته دهشا في الرقعة التي كانت بيننا على صغرها من بساط الفضاء، وقد تيقن انه ان اخذ المسلمون مصافهم ورتبوا في مواقعهم كوامهم، اصطلم عن اخره جمعه، واجتث اصله وفرعه، فابتهل فيها قدر غره وحمل، ولم يكد يحمد الله ما استشعره مرة، فتنادى المسلمون بشعارهم المنصور، واقبلوا عليه وعلى من معه في حال مؤذنة بالظهور والوفور، فتواقف قليلا الجمعان وتجاول مليا الفريقان، وللسيوف حكمها، ومن الحتوف عدده الحملة، فلم يلبث اعداء الله ان ولوا الادبار، واستصرخوا الفرار، واتبعهم خيل المسلمين -نصرهم الله- بقية اليوم والليلة تقتلهم في كل غور ونجد، وتقتضي ارواحهم على حالين من كالى ونعد، ولم يخلص منهم على ايدي المتتبعين -اجرهم الله- الا من سيلتهمه البعد، وياتى على حشاشته الجهد، واما محلتهم فانتهبت في اول وهلة، وشربت باسرها في نهلة، ولم يصب -بحمد الله- من المسلمين -وفرهم الله- على هول المقام وشدة الالتحام - كثير، ولا مات من اعلامهم تحت تلك الجولة الا عدد يسير، فان كان اذفونش -لعنه الله- لم يمت تحت السيوف بددا، فسيموت لا محالة اسفا وكمدا، ونحمد الله على مايسره من هذا الفتح الجليل، وسناه، ومنحه من هذا الصنع الجميل واولاه".

3- رقعة عن المعتمد خاطب بها العمال في استعجال قبض الاموال [1] لدفع الجزية قال فيها: "الحال مع العدو -قصمه الله- بينة لا تخفى، ومداراته ما لم تمكن مضاهاته اولى واجدى، والتزم له في الصلح المتفق عليه جملة مال، رسم عليك منه بعد النظر لحالك، والتحاشي من الاجحاف بمالك كذا، فعجل النظر فيه، وابعثه بكتاب تجاوب على ظهره

(1) مخطوط الذخيرة ج 2 ص 105

بوصف له، وبحسب تعجيلك او تأخيرك يكون الاستدلال على طيب نفسك وصدق ضميرك، فتدارك بالمشاركة في هذا الخطب الملم المهم الذي لا محيد عنه، ولابد منه".

4- واخرى خاطب بها عنه قواد البلاد في هذا المعنى: [1] "الحال مع العدو -قصمه الله- بلية لا تحتاج الى جلاء ولا كشف معروفة لا تفتقر الى نعت ولا وصف، ومن لا يمكن مقاواته ومخاشنته فليس الا مداراته وملاينته، وكلنا -فل الله حده، وفض جنده-، قد اعتقد الخروج من هذا العام الى بلادنا -عصمها الله- فاكثف من جنوده في العام الفارط، واحفل وابلغ في استعداده واكمل، الا ان الله تعالى يسر في انابته الى السلم ما يسر، ونظر لنا حيث لا نستطيع ان ننظر، فوقع الاتفاق معه على جملة من المال تقدم اليه، ونستكف لها الشر الموهوب لديه، فكم حال كانت بخروجه تتلفه بايدي طاغيته تلتسف والرعية -حاطها الله- في العام على ما تقتضيه ما عم البلاد من الفساد، وشملها من جائحة القحط والجراد، وتكليفها اداء شيء من المال، الذي التزم مرتفع واحدها بالمعونة على ما ناب ممتنع، فلم يبق الا ان يميل بهذه الكلفة على الخدمة قبل العموم، ونجريهم فيها على احسن مجاري التحرير والتقويم، ومن يقتضي من كل من احسن التأمل المعونة فيها، والمبادرة بحسب طاقته اليها، وقد ادرجت طي وقعتي هذه من ما يسمى الخدمة قبلك، ورسم على كل واحد منهم ما توجبه حاله وتقتضيه، فتقدم فيما نصصته في الحال اليهم، بما يخفف الحال عندهم ويسهلها لديهم، ولتقبض ذلك كله في اعجل ما يمكن، فالحاجة اليه وكيدة، والضرورة حافزة شديدة".

5- وله من اخرى عن المعتمد الى ابن صمادح: [2] "انما شاوتك -ايدك الله في النعمة- باسونها، وانما لعلك في المهمة بابلغها لما اعلم علم اليقين واتوسمه توسيم الصبح المبين، انك بكريم عهدك وسليم ودك، تاخذ من ذلك بالحظ الاوفى، وتضرب في الارتياح له القدح المعلى، وانفذته من حصن بليط -سهل الله مرامه واعاد الى يد المسلمين زمامه- وقد جرى بين فرسان من النصارى وبين سرعان من الجند -نصرهم الله- عند اطلالى عليه تناوش منهم، ودل انه قد سقط في ايديهم، ثم صوفحوا بالحرب، وكوفحوا الى اخره بالطعن والضرب وانصرفوا ولاذوا بالالجاج واحتجزوا بالجدران والاسوار، ولم يكن واحد منهم يثور الا الى حمام، ولا يبدي جارحه الا الى سهم راح، وفي خلال ذلك ما امرت

(1) مخطوط الذخيرة ج 2 ص 105 (2) مخطوط الذخيرة الجزء الثاني ص 107

بشربهم ففررت مسابعه وقطعت مشارعه، وحصلوا منا ومن العطش تحت محاربين ظاهر وباطن، وعرضة لمجاولين مستتر وغالب، وغير ذاهب على احد ما تقتضيه هذه الحال المبهجة بما يخالفها على علو كعب بالاسلام، وينصب على الشرك واهله من سوء الانتقام بعد البلوغ من الشكر لله تعالى الى الغاية القصوى، من اختصاص أمير المسلمين وناصر الدين ابى يعقوب حليفنا الا عز -ايده الله- بقسم من الشكر وافر وحظ من الثناء والنشر ظاهر فانه الذي ينهج بنفسه الكريمة -سناها الله- هذه السبيل، وتجشم فيها المجاشم حتى اذل من المشركين العزيز، واعز من المسلمين الذليل، ثم لم يشغله -دام تاييده- عن صلة ايدينا بعد ذلك امر، ولا ثناه عن النظر لنا عذر".

6- وله من اخرى عنه [1]: "قل ما ينفع صالح الظاهر اذ فسدت الداخلة، ولا يغنى اندمال الخارج ما كانت العلة، وكتابي هذا يوم كذا، وفي ليلة طلع علي الخبر بما تستغربه من غدر قبانة لي، وعقد السلم بيننا لم يجف مداده، وعهد التواثق لم يكد ينفصل اشهاده، فانظر فعلهم ما اقبحه، وتامله فما افضحه، واعلم ان غايتهم لا تطفأ ابدا نايرتها، ولا يؤمن على حال ثائرتها.

7- وله من اخرى عنه، اثر دخول ابن عكاشة قرطبة وقتله لابنه عباد [2] "كتب على اثر النازل الشنيع والرزء الفظيع الذي صدع كبدي، وفت في عضدي، واثكلني، ثم كان العلة لعيني ما جرى على الفقيد الشهيد عباد ابني مجلك، كان -رحم الله مصرعه، وبرد مضجعه، وقتل قاتليه، ووفر لي اجر المصاب فيه-، وشرح هذه الفاجعة والقاصمة المهاجمة، تسببت من مثابرة العدو المبين المفتون جارى الذميم الجوار، القبيح الاثار، ومجاهرة الفاسق المعروف بابن عكاشة دليله في سبيل التسلط والعدوان، ومهمة الاغراض التمرد والطغيان، على «السعي الخبيث الذي لا يصر على مثله الا منحرف عن الملة ومنسلخ عن الخير بالجملة، طلب الغرة في قرطبة حتى اصابها، وارتقب الفرصة حتى ولج بابها ليلا في جملة من اخاير اصحابه، بعد ان هيء له فتحه، ودخل المدينة، وصادف السرب امنا عزيزا، والعدد قليلا مشيزا ولم... المظهر بالشهادة، فغدر بهم وخرج مطالعا للامر، فلم يبعد ان غشيه المردة، فثبت لها مدافعا عن نفسه حتى افيضت، رحمه الله موقعه فريدا مسلما، واقره في جواره العزيز سعيدا كرما، ثم عات المذكور في البلد، واستشار اشباهه الاراذل

(1) مخطوط الذخيرة الجزء الثاني ص 109

(2) المصدر السابق والصفحة.

في استباحة المنازل، فأجابوه وانضموا اليه وصار جمعه منهم، وقوة امره بهم، واما سائر الاعلام والاسواط فبراء من هذه القصة ناؤون عن المشاركة في هذه الاتية، بغتهم من الحال ما لم يعلموا، ففوضوا او سلموا، وبادرت الى عرض ما وقع على فضل تاملك، لترى جد هذا العدو المطالب المشاق والناصب، واكبابه واليابه على التسلط والتمرد، الى ان انتهك الحرمة وتر في الوان غير مبال ببعيد ولا قريب، ولا ممسك مخافة انكار ولا تتريب والرب لبغية بالمرصاد، والقاطع لامله في الانبساط والازدياد".

8- وكتب عن المعتمد بعودة قرطبة اليه، وقتل ابن عكاشة على يديه، "وانفذته عندما عادت الحضرة الى يدي، وانتظمت ببلدي، على صورة من التيسير ضاعفت حس مواقع العارفة بها طاعتها اراؤهم، وبشر بلواحق النصر المترادف بعقبها، وذلك ان اهلها الصادقة في محبتنا اهواؤهم، المتفقة على طاعتنا اراؤهم، لم يزالوا على مثل الجمر تقلبا مما جرى قبل على غير اختيارهم، وتراجعا لما كان انقضى علينا في جوارهم، نائين عمن ولي امرهم بعدنا، مستقصرين لسانه عندنا، الا النفر اليسير والتافه الحقير من سفهائهم الذين سببوا تلك الوهلة وظاهروا على تلك الغفلة، ولم يكن لهم اولا علم بما سدوه والحموه ولا رضوا اخذا بما جنوه وارتكبوه. فتحركت من وقتي، ولم اكد اطل على افقهم الا والاشارة علينا باثوابهم الينا، ان اقدموا او صمموا فاتت من النهر مخاضة توازي الربض الشرقي منها، وثار اهلها معي داعين بشعاري معلنين بانتصاري وكلمة ثاري يكسرون بين يدي كل غلق يعترضني ويقتحمون كل مرتج ينتصب دوني، واحس ابن عكاشة ومن معه من الشيعة المفلولة بميداني، ففروا بارواحهم، والقوا ما كان معهم من سلاحهم بايديهم، وقد كنت احطت بنواحي الحضرة خيلا ترصدهم، وتقطع من النجاة سبلهم، فوقفوا فيها واتى على آخرهم سيف الى راس ابن عكاشة وكان الحبيب الي، ان يمثل بين يدي، فابسط عليه من العذاب ما كان اشفى لنفسي، واثلج لصدري.

9- ومن اخرى عنه [1]: "كنت قد هادنت اهل غرناطة، لازالوا في اذيال مكرهم عاترين، وفي ايدي غوائلهم مشاجرين مهادنة دعوني اليها فاجبت واستدنوني نحوها فدنوت، فلما اشرفت على التمام واذنت بانصرام، راسلوني في تماديها فساعدت، وارادوني على اتصالها فانفعلت وانفذت، وانعقد بذلك عقد بيننا، بولغ في تأكيده، وتنوهي في

(1) مخطوط الذخيرة ج 2 ص 113

احكام . واثيقه وعهوده، ولم تكد صحيفته تطوى، ولا شهيده يتولى، حتى غدروني في الحصن الفلاني، باستنامة من كان فيه من قبلي الى السلم، واضاعته استشعار الحزم، فلم اعجل بالتنكر، ولا سارعت للتنمر، ورأيت الاستياء، وآثرت الاستبقاء رجاء ان يفكروا في العواقب فيسمعوا الى الواجب، ويعطفوا الى الرأي الصائب، واعدت اليهم من امكنني اعادته من السفراء فلقوا منهم بديهة واباء والتواء وانزواء، فلما رأيت ذاهب رشادهم لا يرجع، ودواء استصلاحهم لا ينجع، وثاني تصفيتهم لا يرعب وفبءهم لا يرهب، عملت على الايثار، واستجمعت لدي الانتصار، وسقيتهم بمثل كاسهم، ورميتهم عن نظائر قياسهم، فلم يطل احد ولا كثر من ماض الايام عدد، حتى حصل من وجوه قوادهم، ورؤوس اجنادهم فلان وفلان، الى ستة وعشرين رجلا، أحيط بهم اسري، وتقبض عليهم طرا، وجعلوا قراهم البث واللهب، ومثواهم الهجون والخسف".

10- وله من اخرى عنه: [1] "شر الناس لنفسه من جهل مقدارها، ولم يتمم اختيارها وقفا اذا شرهت وعميت اثارها وطار بجناح طمعها الى ذميم طبعها، وايد خشعها الى وخيم مرتعها، وعاد الى الصالح من خلطائه، فاستفسره، والى الصفي فاحمده، والى المستقيم فاوحشه وشرده، ولا سيما في حال تحض على استدناء البعداء، وتبعث على مصادقة الاعداء، ومنع نصبة قد اندرت بمالها، وحذرت من بغتته اغتيالها بل والله قد حمت رجومها ولفحت سمومها، وصرح بالباساء شومها، وليس يذهب عندك اني بما اشرت اليه ودرت حواليه الى صاحب طليطلة ناظر، والى قبح ماعاملني به شاهد، وذلك انه منذ زمن يتمرس بجانبي، ويقوم في وجه مالا يريبه من مذاهبي، فمن ذلك ما نعلمه من خفوف الى بسطة للقاء فلان -اخذه الله- بما البسته فجردها واوليته من نعمة فغمطها وجمدها، وبغاية هنالك يشجعه على غدري ويشيعه من مخالفة امري، وتوثق له انه اذا انصرم مني وانخذل ببعض محمله كان له ان همت به سندا ووصل به ان وصلت اليه يدا فحينئذ صنع فلان ما صنع، وحاول ان يطير فوقع من تلك الجهة التي كانت انخرطت في سلك بلدي وعملي، واطردت في منابرها الخطبة لي حتى انصات فيها فواق بكية حكمه، وذكر على اعوادها اسمه، ولكن قليلا ما بقاء التثاؤب اسمه استقال غير ذلك من قوارض القول والفعل، ستصل اليك على السنة الرسل، وانا في كل ذلك احتمل الاذى واعضي على

(1) مخطوط الذخيرة جة 2 ص 113

القذا، واقبض يد الانتصار طمعا في الاقتصار والاستبصار، وذهابا مع عادة الاناءة والانظار، وربما المحت في بعض الاحايين بعتاب، وتكلمت بكلمات غضاب، فظن ان ذلك قصارى في انكاري، ومنتهى وسعي واقتداري، فزاد الاعتداء والاستهراق، وعظم الازدراء والاستخفاف، ولولا نظري من هذه الجزيرة -عصمها الله- الى ما ينظرُ اليه واشفاقي منها على مالا يشفق عليه، لاسكنت اول انبعاثه ذلك النزوان، وردعت قبل احتفاله ذلك الاستنان".

11- وله اخرى عن يوسف بن تاشفين الى قاضي الجماعة بقرطبة، وهي بمثابة ظهير تولية له [1]: " وصل كتابك، فوقفنا على معانيه، واحصينا المجمل والمفصل مما ذكرته فيه، والذي اومات اليه من... الذي وليته ذو شغوب مشغبة، واشغال على محاولها صعبة حق لا امتراء فيه ولا غطاء عليه من محصليه، وذلك ما اختير له على وجه الزمان اهل المتق من اولى الديانة والصيانة، الذين نرجوا ان تكون منهم محسوبا، وفي صدر ديوانهم مكتوبا، فاستهد الله يهديك، واستعن بالله يعنك في صدرك ووردك، وتولى القضاء الذي ولاكه الله بجد وحزم، وامض القضايا على ما امضاها الله تعالى في كتابه وسنة نبيه، ولا تبالي برغم راغم، ولا تنفق من ملامه لائم، وآس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع قوى في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك، ولا يكن عندك اقوى من الضعيف، حتى تأخذ الحق له، ولا اضعف من القوي حتى تأخذ الحق منه، وانصح لله تعالى ولرسوله عليه السلام ولنا ولجماعة المسلمين، وقد عهدنا الى جماعة المرابطين ان يسلموا لك في كل حق تمضيه، ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضيه، ونحن اولا وكلهم اخرا -مذ صرت قاضيا- سامعون منك غير معترضين في حق عليك، والعمال والرعية كافة سواء في الحق، فان شكت اليك بعامل وصح عندك ظلمه لها، ولا يتجه في ذلك محمل غير عزله فاعزله، وان شكا العامل من رعيته خلافا في الواجب فاشكه منها، وقومها له، ومن استحق من كلا الفريقين الضرب والسجن فاضربه واسجنه، وان استوجب العزم فيما استملك فاعزمه، واسترجع الحق شاء او ابى من لدنه، والامر في استكفاء من يكفيك، ويغنى في بعض الامور عنك اليك، لا تشير بشيء عليك وتصرفك احيانا في اصلاح صنعتك، وترقيم معاشك، غير مضيق عليك فيه فاعلمه".

---

(1) مخطوط الذخيرة ج 2 ص 107 (2) المصدر السابق، ص: 120

12- رقعة راجع بها الوزير الفقيه الكاتب ابا القاسم، محمد بن عبد الله بن الجد: [1]
كتبت ولسان القلم يتلعثم، وقرح القلم يتاخر اكثر مما يتقدم سببه، كانتهاء او عجز اعز مدافع اصداري وايرادي، وان متعاطي جوابك ومناهض اغادتك وابدائك لجدير بالتقصير، وخليق بحرمان حظ البسوق والظهور، والله يزيدك فضلا، ويجعلك لكل جليلة من الخصال، ونبيلة من الاحوال اهلا بمنه. ووصل الى وجل الله اعتلاءك، واثل مجدك وسناءك، خطابك الكريم، -نظما ونثرا-، فاهدى برا واقتضى مالا يستطاع شك. ويعلم الله الذي لا ينطوي دونه شر ولا يفوته احصاء لامر، اني أجد من الشوق اليك مثل ما اخبرت به لديك، واحس من التشوق الى لقائك بنحو ما اطلعته من تلقائك، والله وليك حيث كنت واليك، وكان فيك اقمت او ظعنت، واياه اسال ان يبلغك اوطارك، ويؤتيك من كل امل وفي كل مورد ومصدر اختيارك بعزنه، وانا اعتذر اليك من الاقتضاب، ولا الح في النظم بجواب، بما لا يذهب عليك من الاعذار، وبما يستترك لك من الاسباب، وانت بمعاليك تقبل العذر، وتتأول الامر".

(1) المصدر السابق، ص: 120

Dépôt legal : 1633/98

التصفيف والتصميم والسحب بمطبعة الحرف المعتدل
تجزئة 68 الحي الصناعي - تابريكت سلا
الهاتف : 05/04 32 85 (7) - الفاكس : 02 32 85 (7)

الدكتورة العالمة والكاتبة الشاعرة

اسية الهاشمي البلغيثي (التلمساني)

نشأتها ودراستها

- ولدت ونشأت بمدينة تطوان، من أسرة عريقة، علوية شريفة.

- تلقت دراستها الابتدائية بمدرسة للاعائشة الحرة، ثم بثانوية خديجة أم المؤمنين، ثم بمدرسة المعلمات الاقليمية بتطوان، التي تخرجت منها بالرتبة الاولى سنة 1959 - 1960 م.

- تخرجت من المعاهد العليا:

- المدرسة العليا للأساتذة بتطوان، بالرتبة الاولى سنة 1965 م.

- كلية الآداب والعلوم الانسانية، بفاس، بميزة مستحسن سنة 1975 م.

- كلية العلوم القانونية والإجتماعية والإقتصادية، بالدار البيضاء، بميزة حسن سنة 1971 م.

- دار الحديث الحسنية بالرباط بالرتبة الاولى سنة 1982 م.

- ناقشت رسالتها بها بميزة حسن سنة 1995 م.

- كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الدراسة المعمقة بشعبة الادب القديم، الكتابي، بالرتبة الاولى، والبحث، بميزة حسن جدا سنة 1976 م.

- المركز الثقافي الفرنسي بتطوان، دبلوم في اللغة الفرنسية سنة 1964م.

- تتقن اللغة الاسبانية، التي درست بها الى جانب اللغة العربية بكل من الابتدائي والثانوي والمعلمات . . .

- ملمة باللغة الفارسية التي درستها اربع سنوات، بكلية الآداب والعلوم الانسانية بفاس

حياتها العلمية

- زاولت مهمة التدريس بجميع المراحل والمستويات، الإبتدائية والثانوية . . .

- تولت ادارة مؤسسة ثانوية بالدار البيضاء (1968 - 1978).
ثم بالرباط (1985 - 1996).

- عملت ملحقة، بمجلس النواب بكل من لجنة المالية ومصلحة الصحافة ومصلحة العلاقات البرلمانية (1979 - 1983).

- عملت ملحقة بديوان وزارة الدولة القيادة العليا (1984 - 1985).

- تعمل الآن باحثة بمديرية الوثائق الملكية.

- عضوة أتحاد كتاب المغرب والعرب.

- عضوة اللجنة العليا لإصلاح النظام التعليمي سنة 1986 م.

- عضوة رابطة علماء المغرب، المجلس الاقليمي للرباط (تحمل لقب عالمة رسميا).

- عضوة منظمة الاتحاد الدولي لتنظيم الاسرة، المكتب الاقليمي للعالم العربي، فرع الرباط، لجنة المرأة.

- عضوة الوفد الرسمي للمغرب بالمؤتمر العالمي للمرأة بنيروبي سنة 1985 م.

- شاركت في تدريب القيادات النسائية العربية الحكومية والشعبية للجامعة العربية، وحصلت على شهادتها، سنة 1986 م.

- شاركت في ورشات عديدة لتدريب القيادات النسائية، في إطار منظمة تنظيم الاسرة، في ابريل 1988 م بتونس، وفي يوليوز 1992 م بالمغرب، بالدار البيضاء، وفي يوليوز 1995 م بتونس ايضا، وحصلت على شهادتها.

- شاركت في عدة مؤتمرات وندوات وموائد مستديرة، داخل المغرب وخارجه كرئيسة عامة لها ولمختلف لجانها.

- ألقت عدة محاضرات دينية وغيرها، وخاصة في مناسبة شهر رمضان المعظم ضمن برنامج العلماء، خريجي دار الحديث الحسنية العتيدة.

- شاركت في برامج عديدة ومتنوعة، بالاذاعة الوطنية مرارا، وبالتلفزة المغربية أحيانا، ومرة باذاعة صوت العرب، وأخرى بالاذاعة المصرية.

- مارست وتمارس الكتابة - شعرا ونثرا - بمختلف الصحف، والمجلات الوطنية والدولية، في جميع مجالات الحياة، والاغراض الشعرية منذ سنة 1967 م.

- فبالخارج: جريدة "نيويورك تايمس" بالولايات المتحدة الامريكية، ومجلة "بوبلس" بلندن ومجلة التضامن بلندن، وجريدة "لباس" التونسية، وجريدة "الجمهورية" العراقية، وجريدة " الاتحاد العربي الخليجية بالامارات العربية".

- وبالمغرب، جرائد: العلم، الأنباء، المحرر، الميثاق الوطني، رسالة الأمة، المساء، أخبار الدنيا، الاسبوع الصحفي والسياسي. والمجلات: دعوة الحق، والإعتصام، والاسبوع المغربي، وكروان . . .

- لها عدة أعمال وإبداعات، نشرت بعضها. ودواوين، ومذكرات وروايات، وسيرة ذاتية لها ولغيرها . . .

والقافلة طويلة بحول الله.



صدر لها :

- ديوان شعر عنوانه «فجر الميلاد» سنة 1986 م، ترجم الى اللغة الاسبانية.

رقم الايداع القانوني: 1986/500 م.

- ديوان شعر عنوانه «فلق الاصباح» سنة 1996 م، رقم الايداع القانوني 1996/196.

- كتاب رسالتها بدار الحديث الحسنية: «المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة» الذي طبع بامر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله، من طرف وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، رقم الايداع القانوني 1996/126 م.

- كتاب «نضال امرأة» جمعت فيه جملة من المقالات وغيرها من أوجه نشاطها الثقافي المتعدد والمتنوع الذي نشرته بمختلف الصحف والمجلات وبقية وسائل الاعلام داخل المغرب وخارجه في خمسة أجزاء.

- ذو الوزارتين «وزير المعتمد بن عباد ووزير يوسف بن تاشفين أبن القصيرة» حياته وأدبه.

لها قيد الطباعة :

- بحوث جامعية وغير جامعية، ومسلسلات أدبية، ورواية، وسيرة ذاتية، وغير ذلك من مخطوطاتها العديدة.

- مذكرات وسيرة ذاتية لها ولغيرها.